سيد مهدى عنبه

أشعار بيرم التونسى

فى سيرة الظاهر بيبرس



بطاقة فهرسة

حقوق الطبع محفوظة

اسم الكتاب : أشعـــــار بيرم التونسي فى سيرة الظاهر بيبرس

اسم المؤلف : سيـــد مهـــدي عنبـــه

فكرة الغلاف والإخراج: للمؤلــف

رسم الغلاف : الفنان محمد بغدادي

رقم الإيــداع :



الطبعة الأولى 2017

الإهـداء

إلى روح العبقرى بيرم التونسى

الـذى أبـدع فيمـا أبــدع ســـيرة

فارس الفرسان و"أبوالفتوحات"

الظاهـر بيبرس

مقدمة

بدأت حكايتى مع سيرة الظاهر بيبرس منذ أن كنت تلميذًا بالمرحلةالإعدادية عام 1960، حيث أذيعت هذه السيرة على حلقات يومية من إذاعة الشعب آنذاك، وكانت وسيلة الاستماع فى ذلك الوقت هى راديو بدائى، يبدأ بسلك نحاسى يوضع أعلى المنزل لالتقاط إشارة الإذاعة وينتهى بسماعة أذن توضع فى بوق لتضخيم الصوت ليغطى الحجرة التى نجلس فيها. ولشدة تعلقى بهذه السيرة كنت أقف على كرسى وأكاد أضع رأسى داخل البوق المعلق بسقف الحجرة حتى لا تفوتنى همسة من أى حلقة من بدايتها إلى نهايتها.



والواقع أن هذه السيرة وبالطريقة التى قدمت بها تركت تأثيرًاعميقًا فى نفسى، وبدأ منذ ذلك الحين إعجابى بأشعار بيرم التونسى، حيث كانت كل حلقة بها مقطوعتان من الشعر ضمن السياق الدرامى للسيرة، وكان يؤدى هذه الأشعار على الربابة السيد فرج السيد شاعر الربابة الشهير بطريقة أكثر من رائعة.

فى عام 1963 قرأت كتابًا عن الظاهر بيبرس صدر فى سلسلة أعلام العرب للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب جامعة القاهرة، من هذا الكتاب تعمق حبى وتقديرى للظاهر بيبرس الذى جسد عندى مفهوم الحاكم البطل.

وفى عام 1979 أعيد بث حلقات سيرة الظاهر بيبرس من الإذاعة مرة أخرى، فقمت بتسجيلها، وبهذا تمكنت من الاستماع إليها عدة مرات، ومع درجة النضوج المصاحب للمرحلة العمرية بالنسبة لى فى ذلك الوقت، اكتشفت ما فيها من عمق وجمال وزاد إعجابى وانبهارى بأشعار عمنا بيرم التونسى.

وكانـــت هـــذه الحلقـــات مـــن الأســـس التـــى بنـــى عليهـــا هـــذا الكتـــاب، بالإضـــافة إلى كتـــاب الظـــاهر بيـــبرس للـــدكتور ســـعيد عبـــد الفتـــاح عاشـــور وكتـــب أخـــرى متخصصـــة فى تاريخ وسيرة الظاهر بيبرس.

مـــرت ســـنوات طويلـــة لكنهـــا لم تمُـــح مـــن ذاكـــرتى تـــأثرى وإعجـــابى بهـــذه الســـيرة، مـــن حيـــث رمزيـــة البطـــولة أو الأشعـــار الســـهلة الممتنعـــة التـــى بهـــا؛ لـــذا شرعـــت فى تقـــديم هـــذا الكتـــاب الـــذى يحتـــوى عـــلى جـــزأين : الأول عبـــارة عـــن مشـــاهد مـــن تـــاريخ الظـــاهر بيـــبرس الموثـــق بشـــهادة مـــؤرخى عصرـــه، وهـــذه المشـــاهد متوجـــة بالأشـــعار التـــى جـــاءت فى ســـياق الســـيرة الشـــعبية عنـــد معالجتهـــا لهـــذه المشـــاهد، التـــى قصـــد منهـــا إعطـــاء جرعـــة ثقافيـــة تاريخيـــة عـــن فـــترة هامـــة مـــن تاريخنـــا. أمـــا الجـــزء الثـــانى فيسرـــد مشـــاهد لهـــا ظـــل تـــاريخى ولكـــن فيهـــا خيـــال المؤلـــف، ذلـــك الخيـــال الـــذى يخـــدم الغـــرض المنشـــود مـــن وراء إبـــداع هـــذه الملحمـــة التـــى أعـــاد بـــيرم التونسىـــ صـــياغتها بحرفيـــة عاليـــة تبتعـــد بعـــض الشيـــء عـــن الخيـــال المفـــرط الـــذى صـــاغه الوجـــدان الشـــعبى منـــذ العصرـــ المملـــوكى حتـــى بدايـــة العصرـــ الـــتركى. وقـــد تـــم اســـتخدام هـــذه المشـــاهد بالإضـــافة إلى المشـــاهد التاريخيـــة كلوحـــات جدارية نقشت عليها الأشعار والأزجال التى يحتويها الكتاب.

والله ولي التوفيق

سيـد عـنبـه

تقديـم

"السـيرة الشـعبية " هـى قصـص مسـتوحاة مـن الـتراث العـربى الأصـيل وهـى تمجـد الأخـلاق العربيـة الأصـيلة كقـوة العـربى وعزتـه وشـهامته، وتنبـذ الأخـلاق السـيئة كالخيانـة والغـدر. وتتعـدد السـير الشـعبية فى المـأثور الشـعبى العـربى، ورغـم اختفـاء عـدد منهـا، فـإن أن مـا بقـى منهـا كثـير إذا قـورن بـالموجود لـدى الشـعوب الأخـرى. ومـن أبـرز السـير التـى مازالـت راسـخة فى الـذاكرة الشـعبية العربية الآتى:

* السيرة الهلالية (سيرة بنى هلال)

* عنتر بن شداد

* سيف بن ذى يزن

* الظاهر بيبرس

* الأمير حمزة البهلوان

* دلهمه (ذو الهمة)

إلا أن سـيرة الظـاهر بيـبرس عـلى وجـه الخصـوص تتميـز عـن بـاقى السـير الشـعبية لكونهـا سـيرة لحـاكم لـه تـاريخ موثـق، وبطـل جسـد كـل معـانى البطولـة، وملـك بكـل لـوازم الملـك، وسـلطان بكـل مقتضـيات السـلطة، ومـع بدايـة حكمـه بـدأت صـفحة جديـدة فى تـاريخ مصرـ والمنطقـة المحيطـة بهـا. خـاض قتـالا ضـاريا ضـد التتـار، بـل ودوخهـم وأذلهـم وبـدد أحلامهـم. كـما أرعـب ملـوك الإفـرنج فى الشـام وغـير الشـام، فجـاءوا إليـه وقبلـوا الأرض بـين يديـه؛ لـذا حمـل الوجـدان الشـعبى سيرته من جيل إلى جيل، ومازال الناس يحنون لسماعها حتى الآن.

فى خمسينيات القرن العشرين أعاد بيرم التونسى صياغة هذه السيرة بشكل ينم عن فهم عميق لملحمة الجهاد التى قادها الظاهر بيبرس ضد الأخطار التى كانت تواجه الأمة فى ذلك الوقت، كما ضمنها كثيرا من الإسقاطات على الحاضر الذى نعيشه الآن، هذا بالإضافة إلى مجموعة هائلة من الأشعار والأزجال التى تخدم السياق الدرامى لأحداث السيرة.

والحقيقة إذا تأملنا هذه السيرة - التى قدمت بالإذاعة المصرية على حلقات - يزداد انبهارنا بالموسوعية المعرفية للعبقرى بيرم التونسى فى علوم شتى، فنراه مستوعبًا جيدًا لأحداث التاريخ، وعارفًا بجغرافية المنطقة التى دارت فيها الأحداث، ومحللاً لسيكولوجية الأشخاص والجماعات التى أتى ذكرها بالسيرة، ومطوعًا وناحتًا للكلمات كى تعبر عن المواقف الدرامية، وأشياء كثيرة لا يمكن أن تتوفر فى شخص واحد إلا إذا كان عبقريًا .. وبيرم التونسى كان كذلك.

فى أسلوب شائق ولغة رائقة أجاد الشاعر سيد عنبه اقتطاف بعض الزهور الجميلة من دوحة عمنا بيرم التونسى التى تتغنى بالبطل الشعبى المسلم محمود بيبرس الملقب بالظاهر بيبرس صاحب الإنجازات الاقتصادية والاجتماعية المهمة والانتصارات العسكرية الأهم، ومن ثم استحق هذا البطل الحضور فى الوجدان الشعبى كما سبق أن أوضحنا.

وقد اختار المؤلف - سيد عنبه - مختاراته بذكاء شديد وحس وطنى أشد، حيث برهن بهذه الاختيارات على أن التاريخ مدرسة كبرى يجب التعلم منها دائمًا لإصلاح الواقع وتعديل مساراته.

د. حسين عبد العظيم

الجزء الاول

مشاهد من التاريخ والسيرة الشعبية

تمهيد:

لعل من المفيد أن نلقى بعض الضوء على شخص بيبرس ذاته قبل تقلده أمور السلطنة فى دولة المماليك، وكذلك كيف قامت هذه الدولة، والأخطار التى كانت بمحيطها، حتى نتعرف على شكل المسرح الذى ظهرت عليه المشاهد التاريخية التى يتناولها الكتاب.

لا يوجد إجماع فى كتب التاريخ المعاصرة على رواية واحدة عن نشأة بيبرس، وإن كانت أغلب هذه الكتب قد اتفقت على أنه ينتمى إلى "الترك"(*)، وأنه من مواليد بلاد القفجاق (كازاخستان حاليا)، وقد أمضى فى تلك البلاد طفولته الأولى، حيث أغار عليها التتار حوالى عام 1242م، وكان بيبرس ضمن الأسرى، واشتراه أحد تجار الرقيق فى سيواس، وتنقل بعد ذلك فى صحبة تجار الرقيق إلى دمشق وبعدها حماه حيث اشتراه الأمير علاء الدين البندقدار، ولهذا نسب بيبرس إلى أستاذه الأول، فأصبح يعرف باسم بيبرس البندقدار. ثم انتقل مع الأمير علاء الدين البندقدار إلى مصر.

وعندما علم السلطان الصالح نجم الدين أيوب أن أحد أمرائه قد حصل على مملوك صغير اسمه بيبرس تبدو عليه علامات الفطنة والنجابة، حتى طمع فى الاستحواذ عليه. وبانتقال بيبرس إلى ملكية الصالح أيوب، دخل المملوك الصغير دورًا جديدًا واضحًا من أدوار حياته. وصار من المماليك البحرية الذين أسكنهم الصالح أيوب قلعة الروضة. ولم يلبث السلطان الصالح أيوب أن أعتق ذلك المملوك.

(*) مصطلح الترك: يطلق على الشعوب التى تتحدث اللغات التركية كافة مثل الآذر والكازاخ والتتار والقبجاق وغيرها، وموطنهم الأصلى وسط آسيا. أما الأتراك فهم من يسكنون دولة تركيا الحالية.

مما أتاح الفرص أمام بيبرس لكى يبرهن على كفايته وشجاعته فى ميادين أوسع؛ حتى اختاره الصالح أيوب مقدمًا على طائفة الحمدارية؛ لما رأى من فطنته وذكائه. ومع مرور الأيام ارتفع نجم بيبرس بسرعة عند الصالح أيوب الذى توفى عام 1249م.

فى هذه الأثناء تمت معركة المنصورة التى قام فيها المماليك البحرية - وفى مقدمتهم بيبرس - بدور بارز فقويت شوكتهم وازداد نفوذهم، وفى ذلك الوقت وصل تورانشاه ابن السلطان الصالح أيوب إلى مصر ونودى به سلطانا على البلاد؛ فعز على تورانشاه أن يجد فى المماليك البحرية قوة تقاسمه بل تفوقه فى النفوذ.

ساءت العلاقات بين السلطان تورانشاه من ناحية والمماليك البحرية - وعلى رأسهم الأمير ركن الدين بيبرس - من ناحية أخرى، وأصبح كل طرف يتربص بالآخر. واستقر رأى زعماء المماليك البحرية على قتل تورانشاه، وتم ذلك بالفعل وبموته انتهت دولة الأيوبيين فى مصر. واتفق المماليك البحرية على تولية زوجة أبيه شجر الدر، التى لم تكن من سلالة بنى أيوب، بل على العكس كانت من ناحية الأصل والنشأة أقرب إلى المماليك. على أن قيام امرأة فى الحكم كان أمرًا لم يألفه المسلمون فى ذلك الوقت؛ لذلك اجتمع زعماء المماليك البحرية واتفقوا على أن تتزوج شجر الدر من عز الدين أيبك أتابك العسكر على أن تتنازل له عن السلطنة، وبدأ بذلك عصر دولة جديدة فى مصر، هى دولة المماليك(1250 إلى 1517م)، ولم تستقر الأوضاع فى هذه الدولة إلا بعد تولى المظفر قطز الحكم، ثم خلفه الظاهر بيبرس.

ولدت دولة المماليك وهى تواجه فى محيطها مشكلتين كبيرتين كانتا فى حقيقة الأمر أكبر خطرين هددا بلاد المشرق العربى فى العصور الوسطى، وهما المغول من الشرق والصليبيون من الغرب، وقد عبر بيرم التونسى عن ذلك بقوله :

جيش التتار من الشرق هاجم   ومن البحار داخله جيوش الروم

ولم يتقاعس سلاطين المماليك عن النهوض بتلك المسئوليات الضخمة، فواصلوا الجهاد ضد المغول والصليبيين. ولم يكتفوا بطرد آخر بقايا الصليبيين من الشام، وإنما استأنفوا الحرب ضدهم فى بقية قواعدهم بالشرق الأدنى: فى أرمينيا الصغرى، وفى قبرص، وفى رودس. وبالنسبة للمغول فإن سلاطين المماليك أنزلوا بهم الهزائم المتلاحقة تارة فى عين جالوت، وطورا عند حمص، أو أطراف العراق.

وسط هذه الأحداث الجسام والحروب الضارية برز السلطان الظاهر بيبرس؛ ليقوم بدور الحاكم البطل الذى خلد اسمه فى التاريخ، إذ قضى طوال حكمه فى حركة دائمة بين مصر والشام يحارب الصليبيين حينا والمغول أحيانا أخرى. كما بسط نفوذه إلى اليمن والنوبة جنوبا، وإلى العراق وسلاجقة الروم شمالا، بالإضافة إلى أنه أحيا الخلافة الإسلامية بالقاهرة؛ مما كان له أبلغ الأثر والنتائج بالنسبة للتاريخ الإسلامى عامة وتاريخ مصر خاصة. كما شهد عصره نشاطًا اقتصاديًا واسعًا فى ميادين التجارة والزراعة والصناعة. أما عن منشآته فقد كان بناءَ بالفعل، إذ أقام كثيرا من المنشآت الدينية والاجتماعية والعمرانية بوجه عام فى جميع أرجاء دولته الواسعة.

وقد توفى"أبو الفتوحات" الظاهر بيبرس رحمه الله فى 30 يونيو 1277م بعد أن جاوز الخمسين من عمره، وحكم سبعة عشرة عامًا وشهرين واثنى عشر يوما. ودفن فى بدمشق - حسب وصيته - فى ضريح حجرى مهيب لا يبعد عن الجامع الأموى أكثر من ثلاثمائة متر. على أن ذكراه العاطرة وبطولاته النادرة وشجاعته فى مواصلة الجهاد، جعلت المؤرخين كافة يترحمون عليه ويشيدون بكفاحه؛ ولذا حرص الناس أجيالاً عديدة على التغنى بسيرته، ومازالوا يحنون لسماعها.

وقد كرمته مصر بإطلاق اسمه على أحد أحياء القاهرة القديمة "حى الظاهر"كما وضع له تمثال نصفى - بجانب تمثالين لكل من سيف الدين قطز وصلاح الدين الأيوبى - بالمتحف الحربى بالقلعة.



تمثال الظاهر بيبرس بالقلعة

السيرة الظاهرية



تعـد سـيرة الظـاهر بيـبرس أو السـيرة الظاهريـة مـن أشـهر السـير الشـعبية التـى تغنـى بهـا شـعراء الربابـة عـلى مـدى سـنين طويلـة، وتتميـز السـيرة الظاهريـة عـن مثيلاتهـا مـن السـير الشـعبية بأنهـا تـروى سـيرة حـاكم لـه تـاريخ موثـق، واسـتمر فى الحكـم لأكـثر مـن سـبعة عشرـ عامـا (1260 إلى 1277م)، وأيضـا بطـل جسـد معنـى البطولـة في معـارك حربيـة حقيقيـة تعتـبر مـن أشـهر المعـارك الإسـلامية في العصـور الوسـطى، بـدءا بمعركـة المنصـورة التـى أسر فيهـا لـويس التاسـع عشرـ ملـك فرنسـا مـرورًا بمعركـة عـين جـالوت الشـهيرة إلى معاركـه مـع الصـليبيين وانتـزاع مدينـة مـن أهـم حصـونهم في المشرـق العـربى وهـى أنطاكيـة عـام 1268م، وبهـذا يكـون قـد حقـق أكـبر نصرـ للمسـلمين عـلى الصـليبيين في بـلاد الشـام منـذ تحريـر صـلاح الـدين الأيـوبى لبيـت المقـدس عـام 1187م، وأيضـا معاركـه المتتاليـة مـع المغـول ومطاردتـه لهـم في عقـر دارهـم. كـما أنـه يعتـبر المؤسـس الحقيقـى لدولـة المماليـك فى مصرـ والشـام، وإليـه يرجـع الفضـل فى ابتكـار الكثـير مـن نظـم تلـك الدولـة ووضـع القواعـد التـى سـارت عليهـا بعـد ذلـك طـوال عـدة قـرون؛ ولهـذا فـإن مـؤرخى عصرـ المماليـك أنفسـهم - أمثـال المقريـزى وأبى المحاسـن والعينـى وابـن إيـاس - لم يـروا فيـه إلا بطـلا "أقـام منـار الإسـلام والنـاس نيـام"؛ ووصـفوه بأنـه "كـان مـن خـير ملـوك الإسـلام"، وأنـه قضىـ حكمـه فى "الـذب عـنهم مـن العـدو المخـذول" وأنـه كـان" ملكـا شـجاعا مقـداما غـازيا مجاهـدا مرابطـا خليقـا بالملـك " وقـد قـال عنـه المقريـزى " وبالجملـة فلقـد كـان من خير ملوك الأرض".

وكـان ضـاربا عـلى أيـدى المجـرمين، مكرمـا للأتقيـاء والصـالحين، وأمـر بإراقـة الخمـور وإبطـال المنكـرات والخـواطى بجميـع بلـدان السـلطنة. وكـان فارسًـا.. بـل فارس الفوارس، هو دائما فى الطليعة من صفوف جيشه،

يخـرج مــن غــزوة ليـدخل فى أخـرى، ويعــود مــن قتــال ليســتعد لقتــال. ولعــل بــيرم التونسىـ قــد عــبر بصــدق عــن عقيــدة بيــبرس ورؤيتــه لقيمــة الجهــاد ضــد العــدو، حــين كتــب عــلى لســانه موجهــا كلامــه إلى الجنــود الــذاهبين لقتــال العــدو لتحيــتهم وتشجيعهم..فقال :

لا الوقفـــه فى عرفـــات ولا العيـــد فى منى	أفضـــل مـــن الســـاعى وســـيفه معــاه
ســـاعى يجـــود بالـــروح أغـــلى مـــا يمتـلك	للـــه ومـــا لـــه قصـــد غـــير رضـــاه
جيـــش الجهـــاد منـــى إليـــه التحيـــه	وقبـــــل منـــــى ربنـــــا حيـــاه
وجـــوه مضـيئه نـــورها يشبـــه القمـر	فى أوج أبـراحــــــه وعــــــز ضيـــاه
وجـــوه كســـاها الحـــرب نـــور المهـابه	تلقـــى العـــــدو الرعـــب فى أحشـــاه
أنـــا مـــا رأيـــت ســلاطـــين ألا يـــا فـــوارس	أعـــــز منكـــــم فى البهـــــا والجـــاه

وبالجملـــة كـــان ملكـــا بكـــل مقتضـــيات الملـــك: مـــن مهابـــة.. وســـلطة.. ويقظـــة واحتيال..وألاعيب السياسة. ولم يكن أبله كأولئك الملوك

الذين يفقدون عقولهم أمام بهرج عروشهم.

ولكــل مــا ســبق تحــول الظــاهر بيــبرس في الوجــدان المصرــى مــن حــاكم عــادى إلى بطل يروى سيرته قصاصون محترفون أو شعراء الربابة

في مقـاهى القـاهرة ـ ودمشـق أيضـا ـ التـى تخصـص بعضـها في سـيرته حتـى وقـت قريـب، وكانـت تعـرف هـذه المقـاهى بــ"المقاهى الظاهريـة". وهـذا يعـد إسـتثناء فى التـاريخ العـربي والتـاريخ بوجـه عـام. وقـد أضـاف شـعراء الربابـة عـلى هـذه السـيرة أشـعارًا وأزجـالاً وأمثـالا شـعبية لجـذب المسـتمعين حتـى أصـبحت أضـخم ملاحـم الأدب الشـعبى العـربي، إذ يبلـغ عـدد صـفحاتها بعـد تجميعهـا حوالى 16 ألف صفحة.



بيرم التونسى

وفى عـام 1960 أعـاد بـيرم التونسىـ كتابـة سـيرة هـذا البطـل بأسـلوب عصرـى بالمقارنـة مـع السـيرة التـى كُتبـت في العصرـ المملـوكى، وأضـاف إلى التسلسـل الـدرامى للأحـداث مجموعـة هائلـة مـن الأشعـار والأزجـال. وقـدمت هـذه السـيرة مـن خـلال إذاعـة الشعـب (القـاهرة الكـبرى الآن) فى حلقـات عـلى جـزأين: الجـزء الأول فى 82 حلقـة، زمـن الحلقـة نصـف سـاعة، أمـا الجـزء الثـانى فكـان فى 88 حلقـة مـدة الحلقـة ربـع سـاعة. وقـد تـوفى المرحـوم بـيرم التونسىـ فى 5 ينـاير عـام 1961 فى أثنـاء إذاعـة هـذه الحلقـات، وبالتحديـد بعـد إذاعـة الحلقـة رقـم 79، وكـان قـد سبـق لـه الانتهـاء مـن الكتـابة حتـى الحلقـة 87؛ فأكمل الشاعر عبد الفتاح مصطفى وكتب الحلقة 88.

ظلـت أشـعار وأزجـال هـذه السـيرة حبيسـة الأشرطـة التـى سـجلت عليهـا حتـى وقتنـا هـذا، إلى أن وفقنـى اللـه للقيـام بكتابتهـا بعـد الاسـتماع إليهـا عشرـات المرات بصوت شاعر الربابة الذى أداها

وهــو الســيد فــرج الســيد كــما ســبق أن ذكرنــا. وعــلى هــذا فــإن هــذه الأشــعار تنشرــ لأول مــرة مكتوبــة فى كتــاب. علــما بــأننى قــد نشرــت بعضًــا منهــا ضــمن مقــالات عــلى شــبكة الإنترنــت مــن خــلال موقــع " بوابــة الحضــارات " التــابع لجريدة الأهرام.

مــا أحوجنــا الآن إلى الاســتماع إلى هــذه الســيرة التــى تمثــل ومضــة مضــيئة في تاريخنــا فيهــا كثــير مــن العــبر والــدروس التــى تفيــدنا في وقتنــا الحــاضر. وفى هــذا المقــام أقــدم لقطــة عبقريــة كمثــال مــن هــذه الســيرة، عبــارة عــن قصــيدة فنــد فيهــا بــيرم التونسىــ مــزاعم الحمــلات الصــليبية عــلى المشرــق العــربى وهــى نفســها الحجــج والمــزاعم التــى تســوقها فى وقتنــا الحــاضر بعــض الــدول فى الــدول الغربيــة بقصــد التــدخل فى شــئوننا الداخليــة. والقصــيدة عــلى لســان الأمــير ركــن الــدين بيــبرس(قبــل الســلطنة) يــرد بهــا عــلى الشرــوط التــى حملهــا إليــه جاســوس الإفرنج " جوان[*]" رغم أن لويس كان في الأسر.. يقول فيها:

شاعر الربابة

السيد فرج السيد



إليــك يا سفـــــير منــــــى رســــالــه   لملوك أوربا لـويس وغير لـويس

تقـول لهـم يا "جـوان" أمـة محـمـد   من قبـــل منكـم تعرف التقديس

وتحط فوق الرؤوس عيسى ابن مريـم   ست العـــذارى أم قـــدر نفيـس

وابنها المحبـــوب عيسـى اللى يُحـيى   الميتـين ويــــداوى كـــل بئيـس

القـــدس معبـد زى مكـه المكــرمـه   وخـــير ما ســارت إليه العيـــس

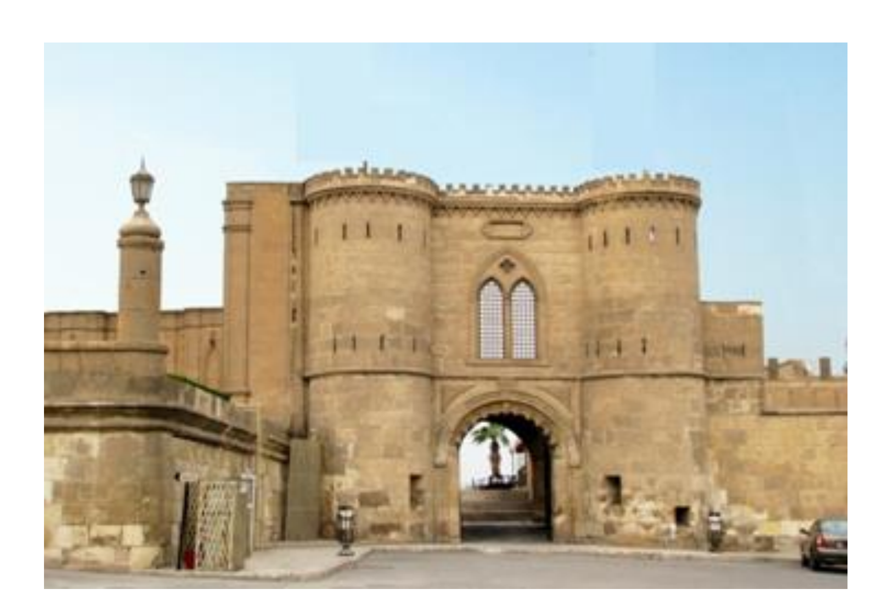
واســأل حبـايبنـــا نصـارى المشــارق   من الأزل عايشين في جــو أنيـس

جيتـوا بلادنـــا يا تجــار البـــطاطـــس   متســترين بالـــدين يا مـــلاحيـس

يا لــويس ما تمليش علينا شـــــروطك   والاشتراط مايجيش من المحابيس

*** العيس : كرائم الابل * جوان: سيتم التعريف به تفصيليًا في الجزء الثانى من الكتاب**

روشتة لكل حاكم



بدخول بيبرس قلعة الجبل يـــوم 23 أكتـوبر سـنة 1260م بـدأت صـفحةجديدة فى تـاريخ مصر- والمنطقـة، ذلـك أن السـلطان الظـاهر بيـبرس أثبـت بأعمالـه وإصلاحاته وحروبـه بأنـه المؤسـس الحقيقى لدولة المماليك فى مصر والشام. ولقد وضع لنفسه سياسـة واسـعة الأفـق. ففـى الـداخل توطيد الأمن والقضاء على المناوئين له، وتخفيف الأعباء عن كواهل الأهالى ثم وضع قواعد النظام الإداري فى مصر- والشـام فى العصر- المملـوكى، فضـلا عـن القيـام بقـدر كبـير مـن الإصـلاحات المتنوعة. وفى الخارج صد أخطار المغول والصـليبيين عـن بـلاد الشـام ونشر- نفـوذه عـلى الجزيـرة العربية وبلاد النوبة.

والواقع أن أهم ما امتاز به بيبرس في حكمه أنما هـو الحزم واليقظة؛ فقد عرف عنه حزمه الفـائق الذى يصل أحيانا إلى نوع من الشدة والقسوة، كذلك اشتهر عن بيـبرس يقظتـه التامـة حتـى إنـه أشرف بنفسه على كل صغيرة وكبيرة في شئون دولته الواسعة، وتفسر غالبية المؤرخين هذا السلوك من جانب بيبرس برغبته في إقرار العدالة وخوفه من أن تتعرض رعيته لظلم الحكام. فالمؤرخ أبـو المحاسن يقول

"...وكل ذلك من كثرة عدله وإنصافه للرعية والنظر في أمورهم وإنصاف الضعيف من المستضعف والدفاع عنهم من العدو المخذول رحمه الله وعفا عنه..." كذلك يذكر المؤرخ نفسه أن بيبرس كره أن يسكن أمراؤه داخل القاهرة خوفا من أن يقوم أتباع الأمراء ومماليكهم وحواشيهم بإنزال المظالم بالرعية، فأنشأ للأمراء دورًا كثيرة خارج القاهرة.

وهكذا يبدو من واقع ما ذكره المؤرخون أن بيبرس توخى العدل في حكمه، وربما كانت رغبته في إقرار العدالة هى التى دفعته إلى الخروج متنكرا بين حين وآخر للوقوف على أحوال رعيته وتفقد شئونهم، ومن ذلك ما يرويه المقريزى من أن بيبرس قام سنة 1264م بإحدى جولاته التفتيشية في إقليم الغربية " فصار يسير منفردا في خفية ويسأل عن والى الغربية وعن سيرة نوابه، فذكرت له سيرة سيئة، فقبض عليه وأدبه وأقام غيره ". وقد جاء فى السيرة الشعبية التى كتبها بيرم التونسى أن بيبرس بدا مهموما بعد أن توج سلطانا مباشرة فسأله أحد أصدقائه الشعبيين عن السبب فأنشأ بيبرس يقول.. صلوا على طه الرسول:

لمــا بقيت سلطــان بدأت متــــاعبى وبقيت أفكــر فى همــوم وهمـــوم
مسئول أمـــام الله عــن كـل مظلمــه يحـس بيها فى البـلـد مظلـــوم
مسئول عن الطفل اليتيم اللى خــده يبـــات بكــف معلمـــه ملطــــوم
مسئول عن العامل إذا طـاح وانكسر يبـــات ليلتها مــن عشاه محــروم
مسئول أنا السلطان عن كـل أرملـه فى العيد ولادها ما تلاقى هـــدوم
إذا الجنود ضربوا وشتموا الرعـايـا مسئول عن المضروب والمشتـوم
اللى يظــن الملـــك نعمه وسعـــاده يا ناس ما هــو إلا جهول وغشـوم
اللى تولى حكــم النــــاس يا غلبــه مهما عــــدل فيها يبات مذمــــوم
وانا استلمت المـلك والملك للـــه ولسه فوق راسى سُحب وغيـوم
أعــــداء قريبه من بـــلادى وملتى وأعــداء بعيده من التتر والـــروم
الاتنين أجاهــدهم ومالى مســـاعد فى الدنيا غير الواحــــد القيـــوم

دمشق أم العواصم

بعــد تــولى الســلطان بيــبرس أمــور الســلطنة، تمــرد عليــه الأمــير ســنجر الحلبــى نائــب دمشــق الــذى اســتاء لمقتــل قطــز" وأنــف مــن طاعــة بيــبرس"، وقــد أخــذ ســنجر الحلبـــى يمكـــن لنفســـه بسرعـــة فى دمشـــق، فـــدعا لنفســـه فى خطبـــة الجمعـــة، وتلقـــب بالملـــك المجاهـــد، ووضـــع اســـمه إلى جانـــب اســـم الظـــاهر بيـــبرس عـــلى النقــود، ثــم أخــذ يســتعد لمــا عســاه أن يتعــرض لــه مــن هجــوم مــن جانــب بيــبرس فــأسرع فى عــمارة قلعــة دمشــق "وجمــع لهــا مــن الصــناع وكــبراء الدولــة والنــاس وعملـــوا فيهـــا حتـــى عملـــت النســـاء "، وفى تلـــك المرحلـــة وصـــل رســـول الظـــاهر بيـــبرس يطلـــب منـــه تقـــديم الطاعـــة للســـلطان الجديـــد، فوجـــد الرســـول أن الأمـــير سنجر قد تسلطن فى دمشق، وعندئذ عاد الرسول إلى مصر.

وتحـــكى الســـيرة الشـــعبية أنـــه عنـــد اســـتعراض ســـجل أبـــراج الحـــمام الزاجـــل ذات يـــوم مـــن ذاك الوقـــت وجـــد أن الحمامـــة الـــواردة مـــن دمشـــق تحمـــل رســـالة مـــن صـــديقه " النقيـــب حســـون " - مـــن وقـــت أن كـــان بيـــبرس يعـــيش في دمشـــق - ولمـــا قرأهـــا وفهـــم فحواهـــا قبلهـــا وطواهـــا، واســـتدعى جماعـــة مـــن القـــادة وكبـــار العسكر، وعنـدما امتلأ بهم البهو أخـرج

رسـالة حسون، ولما كانت تحتوى على تعابير ظـريفة أخـذ يقرأ

ويقول.. صلوا على طه الرسول:

من النقيب حســون ويـدعى أبو علـى	والمحتكم فى البحصه والميــدان
إلـى الفتـى بيبرس سبـع الفـوارس	اللــى الـنزاهه خلتـه سلطـــان
دمشـــق فيها اليوم عجيبة العجـايب	طـرأت عليهـا آخـــر الأزمـــان
طـــول الزمان كانت عـروس المداين	أيـــام بنى العبـــاس أو مـــروان
يا للعجب جـالس على كــرسى مُلكها	ألعوط ما ينفـع غير صبى دكـان
ملبســـاه أمـــه الـزبـون المقمـــط	ومِحـزمـاه أمـه علـى القفطـان
وفــى طـــريقـه يشـترى الهيطـاليـه	ويقـزقـز الفستـق كما الصبيـان
وعالبيـوت يهجــــم ويطلــب أتــاوه	ولا يفـــوت مشلـول ولا عيـــان
دمشـــق يا محمـود بايتـــه تعــاتبـك	وانت اللى تاركها لكـل جبـــان
ودمشـق يا محمـود أم العـــواصـــم	من أوجب الواجبات حِماها يُصان

البحصه والميدان : منطقتان بدمشق. الهيطاليـــــــه: نـــــــوع مـــــــن الحلوى.



وعلى الفور سير السلطان بيبرس جيشا بقيادة الأمير علاء الدين البندقدار إلى دمشق لإخضاع سنجر الحلبى، ولجأ إلى حيلة ذكية حتى لا يشعر أحد بأن هذا الجيش خارج للقتال فيأخذ سنجر حذره ويستعد له، وكانت الحيلة هى أن تخرج العساكر بشكل غير منظم ولا يبدو عليهم أنهم مستعدون للقتال وليس معهم زاد أو مياه للشرب وكأنهم خارجين لمناورة قريبة، وفى الوقت نفسه تم تجهيز كل ما يلزم للقتال على بعد 30 كيلو مترا من القاهرة، ليأخذه نصف عدد العساكر ويستمر فى السير إلى دمشق، ويعود النصف الثانى على القاهرة فيعتقد الناس بأن الجيش قد عاد ولا نية للقتال.

ثم أرسل السلطان بيبرس رسالة إلى صديقه حسون يخبره فيه بأن الجيش فى طريقه لتأديب سنجر الملعون، وأنشأ يقول.. صلوا على طه الرسول:

من الفتى محمود بيبرس المغازى	إلى صـديقه للأبـد حسـون
أنت وانا يا حسون عقدنا الصداقه	يـوم المبارزه فى جبل قاسيـون
وقلنـا مـن يخـدم عشيرته وأمته	لله غيره فى الرجـال ما يكـون
خرج اللعين سنجر يخيب جـلالكم	على الأدب والشرع والقانـون
دمشق يحسبها غنيمه محضـره	لحـد ما ييجى ياخـدها الـدون
وإذا خلا المفتون فى الأرض وحده	سحب السلاح واتنمرد المفتون
جيـوش علاء الدين فى البر زاحفه	جـايه تـؤدب سنجـر الملعـون

ما جرى لبغداد

إن الباحـث فى تـاريخ السـلطان الظـاهر بيـبرس والـذى يتتبـع حروبـه يكتشـف حقيقـة كـبرى، هـى أنـه لايمكـن وضـع خـط فاصـل بـين حروبـه ضـد الصـليبيين وحروبـه ضـد المغـول؛ فـالواقع أن الظـاهر بيـبرس كثـيرا مـا كـان يحـارب الطـرفين فى وقت واحد، أو يخرج لحرب أحدهما فيخوض غمار الحرب ضد الآخر

عنـدما شـعر الصـليبيون فى عكـا بضـعف مركـزهم أمـام السـلطان بيـبرس، أرسـلوا إليـه فى طلـب الصـلح، وتـم عقـد الهدنـة لمـدة عشرـ سـنين وعشرـة أشـهر وعشرـ سـاعات. ويبـدو أن هـذا الصـلح حـرم "أبغـا" والمغـول مـن حلفـاء مخلصـين، الأمـر الـذى جعـل أبغـا ييـئس مـن مواصـلة الحـرب ويفكـر هـو الآخـر فى طلـب الصـلح مع بيبرس مرة أخرى بعد أن رفض بيبرس ذلك من قبل.

جبل قاسيون : جبل يطل على مدينة دمشق

وكـــان أن أرســـل أبغـــا بعـــض الرســـل إلى الســـلطان بيـــبرس بغيـــة جـــس النـــبض فى موضـــوع الصـــلح فـــأكرم الســـلطان وفـــادتهم، وأرســـل بـــدوره اثنـــين مـــن كبـــار أمرائـــه إلى أبغـــا ومعهـــما الهـــدايا والخلـــع. ويبـــدو أن أبغـــا أراد أن يقـــوم بـــبعض مظـــاهرات عســـكرية عـــلى حـــدود الشـــام ليســـتعجل بيـــبرس فى الصـــلح؛ فتحـــرك المغـــول عـــلى حـــدود الشـــام ســـنة 1272م وفى الوقـــت نفســـه أرســـل أبغـــا رســـله إلى الشـــام لطلـــب الصـــلح. وفى تلـــك المـــرة أهمـــل بيـــبرس رســـل المغـــول " ولم يحتفـــل بهـــم"؛ وقـــد طلبـــوا أن يـــذهب الأمـــير ســـنقر الأشـــقر إلى الشـــام لطلـــب الصـــلح، ثـــم عـــادوا ونقضـــوا كلامهـــم فقـــالوا بـــل " يمشيــ الســـلطان أو مـــن يكـــون بعـــده فى المنزلـــة إلى أبغـــا لأجـــل الصـــلح". وعندئـــذ رد علـــيهم بيـــبرس قـــائلا: "بـــل أبغـــا إذا قصـــد الصـــلح يمشيــ هـــو فيـــه أو أحـــد مـــن إخوتـــه". واختـــار بيـــبرس أن يســـتعرض قوتـــه أمـــام الرســـل فـــأمر جنـــوده فلبســـوا عـــدد الحـــرب ولعبـــوا فى الميـــدان خـــارج دمشـــق والرســـل تشـــاهد ذلـــك. ولم يكـــد رســـل المغـــول ينصرـــفون مـــن عنـــد الســـلطان بيـــبرس، حتـــى جـــاءت الأخبـــار بإغـــارة جيـــوش أبغـــا عـــلى "البـــيرة" - وهـــى قلعـــة هامـــة عـــلى نهـــر الفـــرات- وأنهـــم نصـــبوا المجـــانيق لمهاجمتهـــا واتخـــذوا كـــل الاحتياطـــات لمنـــع المســـلمين مـــن الوصـــول إليهـــا عـــبر الفـــرات. وكـــان أن أسرع الســـلطان بيـــبرس لإنقـــاذ البـــيرة ومعـــه بضـــع ســـفن حملـــت عـــلى ظهـــور الجـــمال للاســـتعانة بهـــا عـــلى عبـــور الفـــرات. وقـــد أظهـــر الفرســـان المســـلمون بزعامـــة بيـــبرس شـــجاعة نـــادرة، فـــألقوا بأنفســـهم فى ميـــاه الفـــرات وســـاقوا فيهـــا عومـــا الفـــارس إلى جانـــب الفـــارس وهـــم متماســـكون بالأعنـــة، ومجـــاديفهم رمـــاحهم. وكـــان أول مـــن وصـــل إلى الـــبر الشرـــقى للفـــرات هـــو الســـلطان بيـــبرس نفســـه، فصـــلى ركعتـــين شـــكرًا لله، وتحركت أريحيته وفاضت قريحته وأنشأ يقول.. صلوا على طه الرسول :

بجاه رسول الله يا رب أسألك تجعل خطانا فى سداد ورشاد

أنا فى طريق دايساه جيوش الصحا به ما أكرم الأجناد والقواد

ابن الوليد خالد وسعد المدينه عرب سليلهم طارق ابن زياد

أنا كل ما أرجوه من النصر يحصل ببركة الأسلاف والأجداد

إلى وحوش الأرض جردت سيفى يا رب واجعلنى لهم جلاد

أوغاد بنى الإنسان تتعر منهم وشويه فيهم كلمة الأوغاد

جماد من الصوان قدت قلوبهم يخزى من الله اللى قلبه جماد

ما انساش ولا تنسى البرايا جميعها اللى جرى للعاصمه بغداد

بالمسلمين فعلوا مآسى فظيعه من وصفها تتفتت الأكباد

أنا للتتر لو كانوا كالنمل فى العدد أو كانوا من فوق السحاب جراد

أولاد جنكيز خان بقوه من الله أجعلها من فوق التراب رماد

تسمع بها الأجيال ليوم القيامه كما سمعنا عن ثمود وعاد



بعد ذلك قاد السلطان بيبرس عساكره ضد المغول فأنزلوا بهم الهزيمة وقتلوا وأسروا كثيرين منهم. وفى الوقت نفسه حرص بيبرس على ان يستخدم شيوخ العرب فى العراق ليكونوا عينا له على المغول، ويذكر المقريزى أن بعض هؤلاء الشيوخ من هيت والأنبار والحلة والكوفة وفدوا على بيبرس، فأنعم عليهم وأجزل لهم ليحيطوه علما بتحركات التتار.





شهد عصر السلطان الظاهر بيبرس نشاطا اقتصاديا واسعا فى ميادين التجارة والزراعة والصناعة، وقد ظهرت آثار هذا النشاط الاقتصادى واضحة فى الحياة الاجتماعية فى مصر، فضلا عن أن الثروة الناتجة عن ذلك النشاط عبرت عن نفسها تعبيرا عمليا فيما شيده السلطان الظاهر بيبرس من قصور وجوامع ومدارس وخانات وأسبلة... وغيرها من المنشآت التى مازالت بقاياها قائمة حتى اليوم تشهد بما وصلت إليه الحضارة فى ذلك العصر من رقى وسمو.أما في مجال التجارة فقد شهدت مصر نشاطا تجاريا واسعا حتى صارت تمثل الطريق الرئيسى لتجارة الشرق، والمركز التجارى الكبير الذى يقصده تجار الغرب الأوروبى لشراء ما يلزمهم من بخور وتوابل من محاصيل الشرق. وفى مجال الصناعة فقد وصلت إلى درجة فائقة من الجودة والدقة تشهد بذلك البقايا والآثار التى ترجع إلى هذا العصر. ولم تقتصر المهارة الفنية للعمال والصناع على ما خلفوه من صناعات دقيقة في الأسلحة والزجاج والخزف والنسيج والحلى المعدنية وغيرها؛

وإنما ظهرت أيضا في الفنون الكبرى كالعمارة والتصوير والنحت. وحسبنا ما نلمسه في جامع السلطان بيبرس بعقوده المحمولة فوق أكتاف وأعمدة من الرخام وأبوابه المزينة بزخارف جميلة وقبته الكبيرة الواقعة فوق المحراب.وقد جاء فى السيرة الشعبية أن السلطان بيبرس طلب من وزيره زين الدين أن يعلن على المنابر إعفاء الناس من الضرائب والمكوس لمدة خمس سنوات، وعندما سأله الوزير من أين نأتى بالمال اللازم للصرف على شئون الدولة، أجابه السلطان بأنه لن يأخذ فلوسًا من الخياط ولا النجار ولا الحداد ولا الصياد ولا الزارع ولا التاجر، ولكنه سوف يأتى بالخير من نهر النيل، وفى هذا المقام أنشأ يقول.. صلوا على طه الرسول:

صدق اللى قال يا نيل من الجنه منبعك — والميا هى أصل كل نعيم

كنوز على الشطين وهبها لخلقه — كريم ولا غيره يُعد كريم

يمر فوق الطين ويعود لنا دهب — خيره على كل البرايا عميم

عجبى على بلدان يمر عليها — النيل ونلقى فوقها مظاليم

أو ينوجد مديون ضاقت مذاهبه — فى المحكمه ماسك رقبته غريم

أو أرمله فى الليل نسمع نواحها — ويتيمه تبكى جنبها ويتيم

أراضى فوقها النيل جنه هديه — لو كان حاكمها فى السياسه حكيم

يا نيل أنا بايدى اللى رايح أقسمك — على الأراضى كلها تقسيم

كان أن حرص الظاهر بيبرس على العناية بالزراعة وذلك بتوفير الماء لرى الأرض، الأمر الذى دفعه إلى بناء كثير من القناطر والجسور، ومن أهم القناطر والجسور التى أنشأها بيبرس تلك القائمة على بحر أبي المنجا والتى وصفها المقريزى بأنها "أجل قناطر أرض مصر " ولا تزال بقايا هذه القناطر باقية حتى اليوم وإن كانت غير مستعملة بسبب تحويل مجرى الماء.

وهــذا عــدا قنطــرة منيــة الســيرج وقنطــرة القصــير وقنطــرة خلــيج الإســكندرية وقنطــرة شــبرا منــت وغيرهــا. وثمــة قنطــرة أنشــأها الســلطان بيــبرس عــلى الخلــيج المصرــى، نســبت إليــه فســماها ابــن دقــماق " القنطــرة الظاهريــة " وإن كــان اســمها الشــائع فى المراجــع هــو " قنطــرة الســباع " لأنــه وضــع عليهــا تماثيــل لســباع من الحجارة تشير إلى شعار السلطان بيبرس نفسه.

كــما اهــتم الســلطان الظــاهر بيــبرس بتطهــير الــترع وحفــر الخلجــان وإصــلاحها، فحفــر خلــيج الإســكندرية "وكــان قــد ارتــدم بــالطين " وبحــر أشــمون طنــاح " وكــان قــد عمــى " وبحــر الصماصــم (الصمصــام) بالقليوبيــة وخلــيج سردوس بالشرــقية، وأصــلح بحــر دميــاط، هــذا عــدا عــدد آخــر كبــير مــن الــترع حفرهــا بيــبرس ودأب عــلى حفرهــا حتــى يــروى "أبــو المحاســن " أنــه حفــر في ترعــة أبى الفضل وحدها ألف قصبة.

******

الشجاعة لا تقصر العمر

أثنــت جميــع المراجــع التاريخيــة عــلى شــجاعة الظــاهر بيــبرس، حيــث كانــت شــجاعته هــى صــفته البــارزة، وهــى الصــفة التــى جعلــت المعــاصرين لــه يعجبــون بــه وبشخصــيته ويجعلــون منــه بطــلا يتنــاقلون ســيرته ويروونهــا ويتحــدثون بهــا دائمــا دون ملــل أو ســأم. وزاد مــن وقــع شــجاعة بيــبرس فى نفــوس معاصريــه أنهــا ظهــرت فى وقــت كــان المســلمون أشــد النــاس حاجــة إلى زعــيم شــجاع يســتطيع مواجهــة خطــر الصــليبيين مــن ناحيــة وخطــر المغــول مــن ناحيــة أخــرى. فــالمؤرخ أبــو المحاســن يصــف بيــبرس فيقــول " كــان رحمــه اللــه ملكــا شــجاعا، مقــداما غازيا، مجاهدا مرابطا، خفيف الوطأة سريع الحركة يباشر الحروب بنفسه ".

وقــد ذكــر المؤرخــون أن بيــبرس تــوخى العــدل فى حكمــه؛ وربمــا كانــت رغبتــه فى إقــرار العدالــة هــى مــا دفعــه إلى الخــروج متنكــرا بــين حــين وآخــر للوقــوف عــلى أحوال الرعية وتفقد شئونهم؛

فـــإذا صـــادف خلـــلا أو تهاونـــا عاقـــب المســـئولين عـــن ذلـــك التهـــاون والخلـــل فى حزم.وكـــان أحيانـــا يرتـــدى أســـمالا باليـــة حتـــى لا يعرفـــه أحـــد ويتنقـــل مـــن مدينـــة إلى أخـــرى ليتعـــرف عـــلى أخبـــار الـــولاة وسياســـتهم فى الحكـــم. ومـــا كـــان ليقـــوم بذلك لو لم يكن رجلا شجاعا لا يعرف الخوف.

وقـــد جـــاء فى الســـيرة الشـــعبية أن أحـــد أصـــدقائه الشـــعبيين (يـــدعى عـــتمان ابـــن الحلوة) خاطبه معاتبا ودار بينها الحوار التالى :

عتمان: مش ألف مره قلت لك ما تخرجش لوحدك ؟

بيبرس : اللى معاه ربنا ما يبقاش لوحده يا عتمان.

عتمان:آمنت بالله لكن ربنا سبحانه وتعالى قال خذوا حذركم.

بيبرس: يعنى هيجرى لى إيه يا عتمان.. هاتقتل ؟



عتمان: ولا حاجه.. انت أحسن من مين ؟

بيـــبرس: صـــحيح.. مـــانيش أحســـن مـــن الخليفـــة عمـــر ابـــن الخطـــاب الـــلى ضربـــه أبـــو لؤلـــؤة العجمـــى بـــالخنجر.. ولا أحســـن مـــن الإمـــام عـــلى الـــلى ضربـــه عبـــد الـــرحمن ابـــن ملجـــم بالســـاطور فلـــق دماغـــه نصـــفين ثـــم أنشـــأ بيـــبرس يقـــول.. صـــلوا عـــلى طـــه الرسول :

عمر الشجاع ماتقصروش الشجاعـه	ولا الجبـان بالجبن عمره يطول
لو عشت يا "عتمان" بالخوف والحذر	وخفت غـير الله أعيش خجــول
واللى يسير فى سكون يضمن سلامته	عن اللى يمشى فى حرس وطبول
أنا لا أريـد حـاجب ولا جنـدى أجعله	آمن علـى روحى وهو غـــــول
أنا لا أبالـى وانا فى طـاعـة إلهـــى	فى أيها ســـاعه أبات مقتــــول
واللى ينـول حظه فى مـوته سعيـده	فى جنـــة الفـردوس ياما ينــول
ابن الوليد خـــالد غــزى ألف غـزوه	ومات على فرش الهنا معــــدول
يــاريت فى الميــدان ألاقـــى مُنيتــى	وانا فى سبيل الله أصول وأجـول



خوارج أمة محمد!

تنســـب الطائفـــة الإســـماعيلية إلى إســـماعيل الصـــادق، الـــذى نجـــح أتباعـــه فى إقامـــة الدولـــة الفاطميـــة بعـــد وفاتـــه بعـــدة قـــرون. ومـــن أهـــم المبـــادئ التـــى أقـــام الإسماعيلية مذهبهم عليها، هو إيمانهم بأن للعقيدة ظاهرًا وباطنًا ،

مــما جعــل النــاس يطلقــون علــيهم اســم الباطنيــة. وقــد اشــتدت دعــوة الباطنيــة فى فــارس والشــام بوجــه خــاص، وبــرز مــن دعــاتهم الحســن بــن الصــباح الــذى شــيد القــلاع المنيعــة فى فــارس- وأهمهــا قلعــة المــوت - ومنهــا أخــذ الباطنيــة يواصــلون دعــــوتهم وينفــــذون مــــؤامراتهم فى العــــالم الإســــلامى فى الشرــق. وعنــــدما امتــــد نشــاط الباطنيــة فى بــلاد الشــام أضــافوا عــاملا جديــدا مــن عوامــل التفكــك فى تلــك الــبلاد عــلى عصرــ الحــروب الصــليبية. ذلــك أن الباطنيــة لم يحجمــوا فى ســبيل مقاومــة المــذهب الســنى عــن قتــل بعــض زعــماء حركــة الجهــاد الإســلامية ضــد الصــليبيين، بــل حــاولوا قتــل صــلاح الــدين الأيــوبى نفســه وأصــابوه لــولا أن أراد اللــه لــه النجــاة. وزاد مــن بــأس طائفــة الباطنيــة فى بــلاد الشــام عــلى عصرــالحروب الصــليبية كــثرة مــا امتلكــوه مــن حصــون.ويبدو أن عــداء الباطنيــة الشــديد لأهــل الســنة جعلهــم يتقربــون إلى الصــليبيين بالشــام ضــد الأيــوبيين ثــم المماليــك، وفى الوقــت نفســه رأى الصــليبيون فى الباطنيــة قــوة طيبــة يمكــن محالفتهــا والاعــتماد عليهــا فى الحــد مــن بطــش الأيــوبيين ثــم المماليــك مــن بعدهم.لــذلك دأبــت القــوى الصــليبية بــبلاد الشــام عــلى إرســال الهــدايا إلى الباطنيــة اتقــاءً لشرــهم مــن ناحيــة وطمعا فى تأييدهم من ناحية أخرى.

ومــن ذلــك نــرى أن الآمــة الإســلامية انقســمت إلى شــيع وأحــزاب، فصــارت ســنة وشــيعة ومعتزلــة، وتحولــت الفــرق الدينيــة إلى أحــزاب سياســية تطلــب الســلطة وتقبــل عــلى حطــام الــدنيا، وفى هــذا ينشــد الشــاعر ويقــول.. صــلوا عــلى طــه الرسول:

أمـة محمـد لمـا كـانت مـوحـــــــده	ملكت ما بين الصـين والأسبـان
والمسلمين كانت من العُرب والعجم	سيـدها الإلـه الـواحـد الديـان
أعـوان متجهه إلـى قصـد واحـد	وقـانـونهـا وإمامـها القـرآن
الله يجـازى المجـرمين الخـوارج	مثل ابن مُلجِـم واللعـين عمـران
ومن الأزل قـايم تقـم القرامطـه	الخـالـدين فى أسفـل النـيران
دخلوا على الحِجاج فى ساحة الحرم	وذبّحـوا فيهـم كما الخـرفـان
حتى الحجر لاسود شالوه من مكانه	إلى بـلادهـم بـؤرة الشيطـان
والحشاشين اليـوم قامـوا عصابه	تـنسب إلـى الإيمـان ولا إيمـان
تنسب لإسماعيـل والله أعلـــم	ولجعفر الصـادق عظيـم الشـان
يا مجـرمين أشرار بالكذب ينتمـوا	إلى نسب سيـد ولـد عدنـــان
وحاشا للأشـراف ترفـع سيوفهـا	عالمسلمين بالـزور والبهتـان
حفيـد رسـول الله السيد الحـسن	تارك مـيراث جـده للنبى مـروان
والأدعياء اليـوم شبعـوا مجـازر	فى المسلمين فى أحـلك الأزمـان

وكـان مـن المسـتحيل أن يـرضى بيـبرس عـن وضـع الإسـماعيلية الباطنيـة فى بـلاد الشـام، لأن المماليـك كـانوا سـنيين فـاعتبروا الإسـماعيلية زنادقـة، فضـلا عـن العلاقـات الطيبـة التـى ربطـت الإسـماعيلية بالصـليبيين. لـذلك بـدأ بيـبرس بفـرض ضـرائب باهظـة

ابن مُلجِم : قاتل سيدنا على بن أبو طالب.

- عمـران : عمران بن حطان الذى مدح بن ملجم لقتله سيدنا على.
- الحشاشين : طائفة إسماعيلية انفصلت عن الفاطميين.

علـى الهـدايا التـى اعتـاد الصـليبيون أن يبعثـوا بهـا إلى شـيخ الباطنيـة، وذلـك " إفسـادا لنـواميس الإسـماعيلية وتعجيـزا لمـن اكتفـى شرهـم بالهديـة ". ولم يكـن عسـيرا عـلى بيـبرس بعـد ذلـك أن يسـتولى عـلى حصـونهم بـبلاد الشـام حصـنا بعـد آخـر، حتـى اسـتولى عليهـا جميعـا، وعندئـذ انتهـى أمـرهم بـبلاد الشـام.ولقد ارتكبت هذه الطائفة أفعالا مشينة ضد المسلمين، يصورها الشاعر فيقول:

كـل الكبايـر والذنـوب والمعـاصى	أنا شفتها بالعين مع اللى شـاف
ما شفت أبشـع من ذنـوب الأسـافـل	اللـى يعيشوا واسمهم أشـراف
حـاشـا لعـتره مـن سـلالة محمـد	مـع الفـرنجه يصبحـوا أحـلاف
لبسـوا تيجـان المـلك مـن يـد كـافـر	أحفاد بنى هاشـم وعبد منـاف
عصبه من الهـلافيت يبات كل منهـم	نـهاب فى بيت المسلمين خطـاف
وضعـوا تيجان المملكه فوق رؤوسهـم	اللى رؤوسهـم حقها الأخـفـاف
عصبه من الهلافيت من الناس ماتستحى	أبـدا ولا من ربنـا ما تخـاف
مهما اختفـوا تحت التيجـان لازم الـزمـن	يكشف ستورهم والزمن كشـاف

العفو لمن يستحق العفو

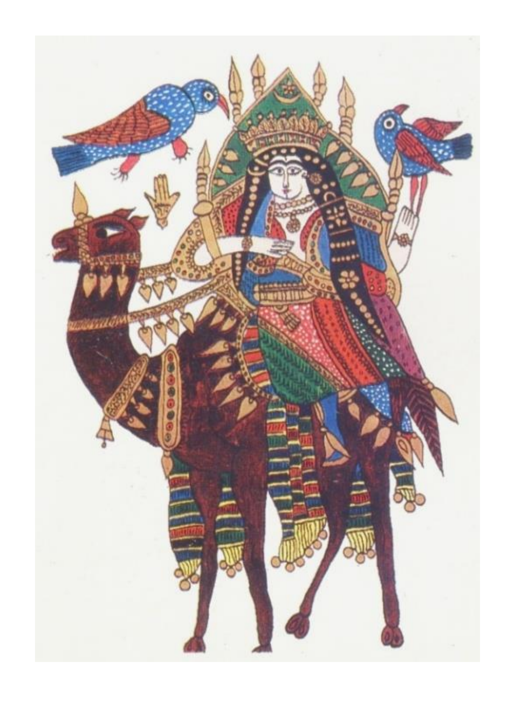
اسـتطاع الظـاهر بيـبرس بحكمتـه ودهائـه السـياسى، التغلـب عـلى المصـاعب والمـؤامرات التـى واجهتـه في بدايـة حكمـه، وإذا كـان قـد لجـأ إلى التسـامح مـع أمـراء المماليـك الـذين خرجـوا عليـه، فانـه لم يكـن مسـتعدا لاتبـاع هـذه السياسـة مع غيرهم إذا أحس بخطر يهدد كيانه.

الأخفاف : جمع خف وهو ما يلبس فى الرجل من جلد رقيق.

مـــن ذلــك أن بيــبرس كـــان لايــزال متخوفـــا مـــن بعـــض بقـايـــا البيـــت الأيـــوبي بالشـــام، وهـــم الـــذين عـــز علـــيهم أن ينتقـــل الحكـــم والســـلطنة إلى مماليـــكهم الـــذين حرمـــوهم مـــن حقهـــم المـــوروث في الســـلطة، وزاد مـــن مخـــاوف الظـــاهر بيـــبرس أن الملـــك المغيـــث عمـــر الأيـــوبي صـــاحب الكـــرك اســـتعان بـــبعض جمـــوع الأكـــراد الـــذين فـــروا إليـــه مـــن وجـــه المغـــول، وأخـــذ يُغـــير عـــلى الشـــوبك وغيرهـــا مـــن المنـــاطق القريبـــة التابعـــة للســـلطان الظـــاهر. وعنـــدما أحـــس الملـــك المغيـــث الأيـــوبي بنيـــة بيـــبرس في الانتقـــام أسرع إلى الاعتـــذار وطلـــب العفـــو عنـــه وعـــن حلفائـــه مـــن الأكـــراد، فعفـــا بيـــبرس عـــنهم جميعـــا، ووفـــد هـــؤلاء الأكـــراد إلى مصرـــ حيـــث أحســـن الســـلطان معـــاملتهم. ولكـــن بيـــبرس كـــان لا يســـتطيع الاطمئنـــان إلى شـــعور بنـــى أيـــوب – وبخاصـــة المغيـــث عمـــر – فخـــرج مـــن مصرـــ ســـنة 1263م وفى عزمـــه القضـــاء عـــلى ذلـــك الخطـــر. وكـــان أن أسرعـــت أم المغيـــث لمقابلـــة بيـــبرس عنـــد غـــزة لتشـــفع فى ولـــدها وتطلـــب لـــه الأمـــان. وتـــذكر الســـيرة الشـــعبية أن أم المغيـــث عمـــر حـــين دخلـــت عـــلى الســـلطان بيـــبرس أنشـــأت تقول.. صلوا على طه الرسول:

أصلى على نـــور الوجـــود محـمـد	اللـــى بُعـث رحمـه لكـــل النـــاس
واهـدى تحياتى إلى الفـارس البطل	اللى علـى عـروش الجبـابره داس
بيبرس يا محمـود أنا فـــرع عـالى	من دوح صـلاح الـدين شديد الباس
أم المغـيث اللـــى منـايـا أشـوفـه	أسـير يديـك يا للـى يديـك تتبـاس
لعب الشيطــان بابنى ولخبـط كيـانه	ويـاما يبلـــغ رغـبتـــه الخنـــــاس
خـــلاه مايفرق بين الطين والـدهـب	والـرجـل يحسبها تسـاوى الـراس
جيتـك أيـا محمـود في ابنـى شفـيعـه	وانت اللى عندك أشرف الإحسـاس
والرحمه فـوق العدل يا للى حكومتك	الـرحمه فيهـا بالـرعـايا أسـاس

من دوح صلاح الدين : منسبة لصلاح الدين.



ثم دار بينهما الحوار التالى:

بيبرس: اتفضلى استريحى.

أم المغيث: لما تطمن قلبى وتقول لى انك صفحت عن ابنى.

بيبرس : أصفح عن واحد متحالف مع التتر ولافرنج عشان يساعدوه فى الهجوم علينا؟.

أم المغيث: هادا طفل يا بيبرس، لولا ما هو طفل ما كان فعل هالفعله.

بيبرس : هههه ماتآخذنيش أنا بضحك على قلب الأم اللى ابنها يبقى ملك ويحصل لاربعين سنه وتقولى عليه لسه عيل.

أم المغيث: لو كان ما هو عيل كان أدرك إن دولة بنى أيوب غرب نجمهم واتخربت ديارهم، وكان كفايه عليه مدينته اللى قاعد فيها.

بيبرس: يا أمى الحكايه ما هياش حكاية نجم يغرب ونجم يشرق، ربنا عز وجل هو اللى بيرفع ويخفض، وانا مش عدو بنى أيوب أهو قدامكم الملك شيركوه من صميم العائله الأيوبيه ومتسلطن على حماه

لكــن راجــل يحــس بشــعور الأمــه الإســلاميه، طلــب منــه ســنجر الحلبــى يســاعده بعســكره فى الهجــوم عــلى مصرــ رفــض، وكتــب لنــا الراجــل انــه مســتعد لمشــاركتنا فى جميــع الأحــوال، راجــل زى دا أضــعه فــوق راسى ولايهمنــيش إن كــان أيــوبى أو فــاطمى، ولا يهمنــيش إن كــان هــو الــلى تــابعنى ولــلا أنــا الــلى تبعــه، ليــه المغيــث مــا يعملــش زيــه ويكتفــى بالســلطنه عــلى مدينــه عظيمــه زى الكــرك؟. ماحنــاش عايزينــه يســاعدنا، كفايــه ماينضــمش لأعــداءنا مــن الإفــرنج والتــتر الــلى لــو انتصروا علينا هيكافؤوه بقطع رقبته.

أم المغيــث: صــدقت يــا ابنــى صــدقت.. الــلى حوليــه مــا فــيهم حــدًا يقــول هــذا الكــلام، الــلى حواليــه مماليــك زُعــر قباضــيات نهــارهم كلــه يهرجــوا بالــديوك وينــاطحوا بالكباش.

بيبرس : ماهى دى المعارك الحربيه اللى بيتشطروا فيها.

أم المغيث: ها انا حكيت لك وانت سيد من يفهم وسيد من يغفر ويسامح.

بيبرس : يعنى أرجع تانى بجيشى؟.. مستحيل.

أم المغيــث: مــا بريــدك ترجــع بجيشــك، مــانى مجنونــه أنــا مــرات ملــك وبنــت ملــك وأم ملــك، أنــا أجيــب لــك المغيــث مــن ودنــه لحــد هــون يبــوس رجليــك وتضرــبه بصرماتك.

بيبرس : دا حل كويس ييجى معزز مكرم مدينة بيسان.

أم المغيث: أسرع ما يمكن.. الله يرضى عليك يا بيبرس الله ينصرك يا بيبرس.

وتظــاهر الســلطان بيــبرس بالموافقــة عــلى طلبهــا، وأعلــن عفــوه عــن المغيــث، ولكنــه قــبض عليه بعد ذلك وأرسله إلى القاهرة حيث اعتقل بقلعة الجبل.

ويبدو أن السلطان بيبرس كانت لديه أسباب لعدم الوفاء بالعفو عن المغيث، فمن المؤرخون من قال إن المغيث راود امرأة بيبرس عن نفسها قبل أن يلى بيبرس منصب السلطنة، ومنهم من قال إن الشهود قد شهدوا على أن المغيث كان متواطئا مع المغول ضد المسلمين وأنه أراد أن يستعين بالمغول للقضاء على الظاهر بيبرس والمماليك واسترداد سلطان بنى أيوب.

وتحكى السيرة الشعبية أن الظاهر بيبرس أراد أن يعفو عن بعض المعتقلين لديه، ومن ضمنهم المغيث عمر، وتناقش فى هذا الأمر مع وزيره زين الدين، فأبدى زين الدين تحفظه على الإفراج عن المغيث، وفى هذا المقام أنشأ يقول.. صلوا على طه الرسول :

أنا لما صدرى يضيق أصلى على النبى ... اللى على سيرته يفج النور
العقل والوجدان يا محمود يقول لى ... إن المغيث منك يعيش منحور
سليل صلاح الدين سقطت حكومته ... وكان مراده يحكم المعمور
يحكم مداينها وكل مدينه ... فيها قصور جنب القصور قصور
ومن حكم عالهند والترك والعرب ... يملى قصوره بالملاح الحور
مسحت يا محمود خريطة خياله ... ويبات ذليل من غير أمل مأثور
أحلف يمين يا بيبرس عاللى هاقوله ... يمين لا حانث ولا موزور
لو المغيث يلقاك فى ساحة الحرم ... يفلق دماغك حتتين بساطور
ما تحسبوشى يتوب ولو تاب يا بطل ... أنت اللى تعرف توبة الموتور
فى رقبتك تار ماينساه إلى الأبد ... إلا وهو فى التراب مغمور

******

النخوة النخوة يا رجال!

توجـه السـلطان بيـبرس إلى بـلاد الشـام فى نـوفمبر سـنة 1269م بعـد أن سـمع بغـارة التتـار عـلى السـاجور قـرب حلـب، ووصـل إلى دمشـق فى شـهر ديسـمبر مـن نفـس العـام. وكـان بيـبرس قـد علـم بمـا كـان مـن اتصـالات بـين الصـليبيين والمغـول تسـتهدف عمـل تحـالف بـين الفـريقين ضـد المسـلمين وسـلطنة المماليـك. ويبـدو أن هـذه الاتصـالات أدت إلى رفـع الـروح المعنويـة عنـد الصـليبيين بـبلاد الشـام، فحاولوا الإغارة على "صفد" ولكنهم هزموا شر هزيمة.



ومهما يكن من الأمر، فإنه لم يعد بوسع السلطان بيبرس أن يصبر على جرأة الصليبيين، ففكر فى توجيه ضربة قوية لهم فى شمال بلاد الشام، وبينما هو يستعد لذلك بدمشق فى ربيع 1270م، إذا بالأخبار تصل إلى مسامعه بخروج لويس التاسع ملك فرنسا من بلاده على رأس حملة صليبية جديدة لا يعرف أحد حقيقة مقصدها؛

لذلك خشى بيبرس أن يكرر لويس التاسع محاولته لغزو مصر،

فاهتم بإنشاء السفن والشوانى.

وتذكر السيرة الشعبية أن السلطان بيبرس وهو فى قصره بدمشق، استدعى وزيره زين الدين ابن الزبير ليستشيره فيما يشغل باله من أمور فى ذلك الوقت، وهو العمل على تحرير الأسرى المسلمين لدى الصليبيين، الذين يعاملونهم أسوأ معاملة، ومجابهة الخطر الصليبى المغولى، ثم الاستعداد لصد حملة لويس التاسع المرتقبة والتى قيل إنها قادمة على ثلاثين ألف سفينة. وفى هذا المقام أنشأ يقول.. صلوا على طه الرسول:

دول تــلاته ومــين يــدل عليهــا	يا بن الزبير قل لى يا زين الديـن
الأولــه فيهـــا نِحـــل الأســـارى	المسجونين فى حُوزة الملاعين
أنـا أستحى أجلــس أمــام الموائـد	وأهـــل دينى أكلهـم مــن طـــين
أنـا أستحى أجعـل فراشى وســائد	والمسلمين فـوق الـتراب نايمين
والتانيه يا ابن الـزبير وانت أدرى	جيوش هولاكو عن قريب جايين
مهمـا يبيـد السيــف منهـم ويفنـى	أضعافهـــم يا ابن الزبير باقـيين
اليـــوم فى بغـداد فعلـوا جرائـــم	تِـفـزع وتجـرى منها الشيـاطـين
والشام ويا خوفى على الشام منهم	ما يخلـوا فيها لا عنب ولا تـين
والتــالته جيـش لـويس يا وزيرى	زاحـف على تلاتين ألـف سفــين
راجع إلى دميــاط ياخـد بتـــاره	لمـــا خـــرج منهـــا بشكـل مهـين
مين يضرب الإفــرنج ويقاوم التتر	ومين يا زين يفدى الأسارى مين
الله لا غــير الله يهـدى الحيــارى	الله ولا غـــيره سنـــد ومعـــين

على آن الأخبـار لم تلبث آن وردت بنزول لـويس التـاسـع فـى

تـونـــس وعندئـــذ لم تفـــتر همـــة بيـــبرس عـــن مســـاعدة تـــونس، فأرســـل إلى صـــاحبها بمســـير النجـــدة إليـــه، كـــما كتـــب إلى عربـــان برقـــة والغـــرب بـــالإسراع لنجـــدة صـــاحب تـــونس، وأمـــر بحفـــر الآبـــار فى الطريـــق ليعتمـــد عليهـــا العســـاكر الخـــارجون مـــن مصر إلى تونس. وقبل أن تكتمل

كــل هـــذه الإجـــراءات وصـــلت الأخبـــار إلى مصرـــبمقتل لـــويس التاســـع وتشـــتت حملتــه فى تــونس؛ وعندئــذ أفــاق بيــبرس مــن ناحيــة ذلــك الخطــر وعــاد مــن جديــد يفكر فى أمر الصليبيين بالشام.

رسالة إلى حاكم خائن

بعــد أن تــولى الظــاهر بيــبرس أمــور الســلطنة فى مصرــ والشــام، بــدأ بتقويــة جبهتــه الداخليـــة قبـــل أن يشرـــع فى محاربـــة الصـــليبيين والمغـــول ؛ ولـــذلك أخـــد يســـتميل عامـــة النـــاس بتخفيـــف عـــبء الضرـــائب عـــنهم حيـــث كـــان المظفـــر قطـــز قـــد اســـتحدث كثـــيرا مـــن الضرـــائب والمكـــوس ليســـتعين بحصـــيلتها عـــلى حـــرب المغـــول، ومــن جملــة ذلــك أنــه فــرض عــلى كــل واحــد مــن أهــل مصرــ دينــارا، كــما صــار يأخــذ ثلــث الزكــاة وثلــث قيمــة التركــات، فبلــغ حصــيلة ذلــك كلــه ســتمائة ألــف دينــار فى العـــام.فلما ولى الســـلطان الظـــاهر بيـــبرس أبطـــل جميـــع تلـــك الضرـــائب التـــى اســـتحدثها قطـــز، وكتـــب منشـــورًا بـــذلك قُـــرئ عـــلى منـــابر المســـاجد؛ فسُرـــ النـــاس بهذا وزادوا فى مظاهر الزينة.

عـــلى أن الأمـــور لم تـــتم لبيـــبرس فى ســـهولة مطلقـــة، ودون أن يتعـــرض للثـــورات المألوفــة التــى تعــرض لهــا ســلاطين المماليــك كافــة فى مســتهل حكمهــم، وكــان قــد كتـــب إلى الملـــوك والأمـــراء والنـــواب يخـــبرهم بســـلطنته، فأجـــابوا جميعـــا بالســـمع والطاعـــة، عـــدا الأمـــير ســـنجر الحلبـــى نائـــب دمشـــق الـــذى أخـــذ يمكـــن لنفســـه بسرـــعة، فـــدعا لنفســـه فى خطبـــة الجمعـــة، وتلقـــب بالملـــك المجاهـــد، ووضـــع اســـمه إلى جانـــب اســـم الظـــاهر بيـــبرس عـــلى النقـــود. ويبـــدو أن النجـــاح المبـــدئى الـــذى أحـــرزه الأمـــير ســـنجر بســـبب انشـــغال بيـــبرس بشـــئون ســـلطنته الجديـــدة فى مصرـــ جعلـــه يـــتمادى فى أطماعـــه، فبـــات يحلـــم بالســـلطنة وركـــب بشـــعار الســـلطنة فى دمشق، بل أن سنجر حاول مد نفوذه على بقية أنحاء الشام،

فأرســل إلى الأمــير حســام الــدين لاجــين حــاكم حلــب يســتميله للــدخول فى طاعتــه وأن يكــون نائبــا لســنجر فيهــا، ولكــن الأمــير حســام الــدين رفــض الاســتجابة لسنجر وقال " أنا نائب لمن ملك مصر "، وأعلن طاعته للظاهر بيبرس.

وقــد جــاء فى الســيرة الشــعبية للظــاهر بيــبرس أن الأمــير حســام الــدين وجــه رســالة إلى الخــائن ســنجر الحلبــى يــرفض الاســتجابة لــه، وفى الختــام أنشــأ يقــول.. صــلوا على طه الرسول.

أصلى واسلم على الزين محمــد	نبــى البرايا مقيــم العــدالــه
سنجــر يا قيافه يا مــلك الطــرافه	سيبك من الهيافه واسمع دى المقاله
فى غيبة الأقارب تعمل لى محارب	وفى يوم الكريهه تنوى الاستقاله
ما أرذلها قباحتك دا العرش اللى تحـ	تك واخده من كلاحتك وأمور الرذاله
عايزنا نساعدك لاجل يتم سعدك	دا بعدك دا بعدك يا سايق الهباله
فتش عن سوانا يخون الأمــانه	دى لاهى صيانه ولا هى نبــالــه
محمود فى المهمــه يتاقل بأمــه	محمود عنده ذمه وانت من الحثالــه
وصلتنى رسالتك من عالى جلالتك	أو واطى هبالتك وأجرك دى الرساله

وكـــان أن أرســـل الســـلطان بيـــبرس جيشـــا إلى دمشـــق بقيـــادة الأمـــير عـــلاء الـــدين البندقدار، وتم القبض على الأمير سنجر الحلبى، وأرســل إلى
القــاهرة حيــث اعتقلــه بيــبرس بالقلعــة، حتــى أفــرج عنــه بعــد ذلــك وقلــده نيابــة حلب.



وتحـــكى الســـيرة الشـــعبية أنـــه بعـــد أن اســـتقرت الأمـــور لبيـــبرس اســـتدعى ســـنجر من السجن وأبلغه بالإفراج عنه ففرح وأنشأ يقول.. صلوا على طه الرسول:

أصلى على المختـــار اللى شـــريعتــه أمرت جميـع النـاس تكـون أحبــاب

بيبرس يا محــمــود أصــــل المحبــه   بينى وبينك يــوم ما كنــا شبـــاب

تصـــد عنى كـل من عـــاب في حقــى   واصـــد عنك كـل مجـرم عـــاب

وفى الحروب انت عـارفنـى واعـرفـك   لكـــل منـــا فـي الـنزال أبـــواب

تقـول عليـا رزيـل ماكـدبش قـــولك   لكـــن ما كنت جبــان ولا هـــراب

إذا طمعنا يــوم في عــرش الممـــالك   واحنـــا فـوارس ما علينـا عتـــاب

وإذا خضــع يا بيبرس مثلـــى لمثـلك   لا ينخفـض قـــــدره ولا يتعـــاب

ولما أكون مملوك في جيشك وعسكرك   ملك الملـوك يحسبلى ألف حسـاب

أنـا أخوك في الــدين والجنس والوطـن   وكــــل مــن فوق التراب تـــــراب

على ظهور الخيل " يبان كل فارس "

قـاد لـويس التاسـع ملـك فرنسـا الحملـة الصـليبية السـابعة بهـدف الاسـتيلاء عـلى مصرـ التـى كانـت تمثـل العقبـة الكـبرى فى سـبيل اسـترداد بيـت المقـدس الـذى حـرره صـلاح الـدين الأيـوبى عـام1187م. ففـى مـايو 1249 أبحـر لـويس التاسـع نحـو مصرـ عـلى مـتن سـفينته الملكيـة، وتبعتـه سـفن الحملـة مـن مينـاء ليماسـول القـبرصى، وبسـبب شـدة الريـاح جنحـت إلى عكـا وسـواحل الشـام نحـو 700 سـفينة تحمـل حـوالى 2100 فـارس صـليبى فتوقـف لـويس فى جزيـرة المـورة اليونانيـة، ثـم أبحـرت السـفن بعـد ذلـك إلى مصرـ، وفى هـذا المقـام يقـول الشاعر:

مـن الأبـابيـل تنـزلك حـجـاره	**على الفجـار فى لحظـه تبيـدها**
وبجيوش الجـراد فى يـوم وليلـه	**يغطى النخـل ما يملى جريـدها**
وبالطـوفـان تتغـير مـدايـن	**فـلا تعـرف قديمها من جديـدها**
وأمـا الـزلـزلـه لمـا تـزلـزل	**على القـارات تتغـير حـدودها**
أما الـريـح جنـد اللـه كـانت	**عقـوبـة عـاد مـره لا تعيـدها**
وريـح الـبر مـا يبلـغ أذاهـا	**ريـاح البحر لمـا المـوج يزيـدها**
عواصف عـاد فـوق البحـر لابيض	**عليك يا لويس ما خلفت وعودها**
تشوف بعينيك فوق الموج مراكبك	**بتتمـرجـح وتنزل فى لحـودها**

وصلت سفن الصليبيين إلى دمياط، وأرسل لويس إلى السلطان الصالح نجم الدين أيوب رسالة يطالبه فيها بالاستسلام، فرد عليه الصالح أيوب يحذره فيها من مهاجمته لمصر، وفي يوم 5يونيو1249م نزل جنود وفرسان الحملة على بر دمياط، وكان قوام القوات الصليبية نحو 50 ألف مقاتل وفارس، ونشب قتال شديد بين المسلمين والصليبيين انتهى بتراجع المسلمين، ودخل الصليبيون دمياط بسهولة ودون مقاومة.



وفي أواخر العام نفسه تحركت الحملة باتجاه فارسكور، في هذه الأثناء توفي السلطان الصالح نجم الدين أيوب، وأخفت زوجته شجر الدر نبأ الوفاة لحين وصول ابنه توران شاه من حصن كيفا بالعراق، وهكذا تأزم الموقف في مصر فجأة، فالبلاد أصبحت بدون سلطان، والصليبيون أوغلوا في الدلتا، وصارت مقاليد الأمور بيد شجر الدر-زوجة الصالح أيوب -

الحـرب يا حافيـين واسـع ميـدانهـا   وادى "روبـرت الكنت" نـازل يناجـز

واقـف روبـرت الكنت يطلـب نـزالـك   يا جند نجـم الدين فهل من مبـارز؟

على ظهـور الخيـل يبـان كـل فـارس   وتحت ضرب السيف يبان كل عاجز

اطلع يا واد يا بيبرس بوس رجل سيد   ك واركـع أمامه يا صبى المخـابـز

وانت أيا قـلاوون يا بوشناب طـويله   يا للى طـول عمرك مناكف مناجـز

وانت يـا بلبـان يـا واد يـا رشيـدى   اخـرج إلى الميـدان وشد المهـامـز

وفين شجـرة الـدر تحضر معاكـم   من قبل ما تكتب في ضمن النواشز

آدى إحنـا يا صـعاليك جينـا بلادكـم   ولا صبـح بينا وبينكم حـواجـز



وقــع كثــير مــن الصــليبيين قــتلى فى أزقــة المنصــورة، وحــاول مــن نجــا مــنهم الفــرار، ولكــن المســلمين لحقــوا بهــم قــرب فارســكور حيــث أجهــزوا علــيهم وأسروا لــويس التاســع نفســه ومجموعــة مــن كبــار أمرائــه وقــادة جيشــه. ونقــل لــويس التاســع إلى دار القــاضى إبــراهيم ابــن لقــمان أســيراً، وقــد بلــغ عــدد قــتلى الصــليبيين فى حملــة لــويس التاســع مــا بــين 10 ألاف و30 ألفــا. اشــترط المصريــون تســليم دميــاط وجــلاء الحملــة عــن مصرــ والتعهــد بعــدم العــودة إلى مصرــ مــرة أخــرى قبــل إطــلاق سراح الملــك لــويس، وكــذلك دفــع فديــة كبــيرة لــه ولكبــار ضــباطه وجنده.



لويس التاسع

كلام فى الحب

إذا كـــان مغـــول فـــارس بزعامـــة هولاكـــو وخلفائـــه هـــم الـــذين أنزلـــوا الضرـــر بـــبلاد المســـلمين، فاجتـــاحوا العـــراق ودمـــروا بغـــداد وقتلـــوا الخليفـــة المستعصـــم، وأوغلـــوا فى الشـــام حتـــى غـــزة وعـــين جـــالوت فى فلســـطين؛ فـــان هنـــاك فرعًـــا آخـــر مـــن المغـــول (مغـــول القفجـــاق أو القبيلـــة الذهبيـــة وكـــان مركـــزهم بـــين بحـــر قـــزوين ونهـــر الفولجـــا) اتخـــذ سياســـة مغـــايرة تمامـــا، ذلـــك أن زعـــيم هـــذه القبيلـــة- بركـــة خـــان - اعتنـــق الإســـلام، وغضـــب لمـــا فعلـــه هولاكـــو وقومـــه بـــبلاد المســـلمين وبخاصـــة قـــتلهم الخليفـــة العبـــاسى، ولم يلبـــث أن انتشرـ الاســـلام أيضـــا بـــين نســـبة كبـــيرة مـــن مغـــول القفجـــاق، مـــما جعـــل النفـــور يشـــتد بيـــنهم وبـــين مغـــول فـــارس، وفى الوقـــت نفســـه صـــار مغـــول القفجـــاق قـــوة كـــبرى تفـــرح لمـــا يصـــيبه المســـلمون مـــن خـــير وتـــألم لمـــا ينـــزل بهـــم مـــن شر؛ لـــذلك فـــإن الســـلطان بيـــبرس رأى فى إســـلام بركـــة خـــان وقومـــه فرصـــة طيبـــة لاكتســـاب هـــذه القـــوة الإســـلامية الجديـــدة إلى جانبـــه للوقـــوف فى وجـــه مطـــامع مغـــول فـــارس، ولم تلبـــث أن وفـــدت رســـل بركـــة خـــان ســـنة 1263م إلى الســـلطان بيـــبرس، ومعهـــم خطـــاب منـــه يقـــول فيـــه " فلـــيعلم الســـلطان (الظـــاهر) أننـــى حاربـــت هولاكـــو الـــذى هـــو مـــن لحمـــى ودمـــى لإعـــلاء كلمة الله تعصبا لدين الإسلام؛ لأنه باغ والباغى كافر بالله ورسوله...

". وقد بادر السلطان بيبرس بإرسال الرد إلى بركة خان مصحوبا بالهدايا الثمينة، كما توج السلطان بيبرس علاقته مع مغول القفجاق بزواجه من ابنة بركة خان.

وقد جاء بالسيرة الشعبية أن ابنة بركة خان كانت تسمى "جولسن " وكانت ذات حسن وجمال يخطف الألباب، وحين رآها بيبرس لأول مرة خفق قلبه بحبها وأنشأ يقول.. صلوا على طه الرسول:

بنتك يا بركه خان هدت عزايمى   وانا اللى عزمى ياما هد جبال

طفله ولا تدرى ما تفعل عيونها   الذابله في القلب من أفعال

فيها جمال الروض والروض مز   دهر لكن عليها هيبة الشلال

كأنها من نور ربى خلقها   وخلق جميع الناس من صلصال

ضربت عليا نطاق ساحر جعلنى   بين السما والأرض مالى مجال

الحب جانى منين يا بنت المغولى   وانا طول حياتى في ميدان قتال



بـركـة خــان

فى سبيل الله تهون المصاعب

لم تــؤد وفــاة هولاكــو خــان مغــول فــارس ســنة 1265 إلى تهدئــة الموقــف بــين المغــول وســلطنة المماليــك، لأن أبغــا بــن هولاكــو كــان مســيحيا نســطوريا، فتــزوج مــن ابنــة الإمبراطــور البيزنطــى بــاليولوجس، وحــرص عــلى أن يــدعم صــلاته بــالقوى المســيحية فى الشرــق والغــرب جميعًــا للانتقــام مــن المســلمين فى بــلاد الشام ومصر.

علـى أنــه يبــدو أن أحــوال دولــة مغــول فــارس الداخليــة والخارجيــة عنــد قيــام أبغــا فى الحكــم كانـــت لا تشـــجعه عـــلى الاســـتمرار فى معـــاداة المســـلمين فى مصرـــ والشــام، بــدليل انــه أرســل الرســل ســنة 1265 إلى الســلطان بيــبرس تحمــل الهــدايا وتطلــب الصــلح، ولكــن بيــبرس - شــأنه شــأن أى حــاكم مســلم آنــذاك- كــان لا يــرضى لنفســه أن يضــع يــده فى يــد المغــول، وهــم الــذين مزقــوا العــالم الاســلامى وقتلوا خليفة المسلمين وحالفوا أعداء الإسلام.

ولمــا أهمــل بيــبرس تلــك الــدعوة للصــلح، أعــاد أبغــا ســنة 1268 يكــرر طلــب الصــلح، ولكــن بيــبرس رفــض مبــدأ الصــلح، فلــم يبــق لأبغــا إلا مواصــلة العــدوان عــلى بــلاد الشــام بمحالفــة الصــليبيين؛ فأغــار عــلى الســاجور بــالقرب مــن حلــب، واتفق مـع الصليبيين على القيام بهجـوم مشترك على بلاد الشام.

وتــذكر الســيرة الشــعبية أن الســلطان بيــبرس اســتيقظ لصــلاة الفجــر فى أحــد الأيــام مــن ذلــك الزمــان، وبعــد الصــلاة ســمع أبــا ســليمان المجــذوب يلقــى الكــلام عــلى العــوام وفيــه مــا فيــه لــذوى الأفهــام، وهــا هــو يــترنم بهــذه الأبيــات وتــرد عليــه الرجال والبنات:

جيـوش بعيـد وكُـتـــار	مـن تـركمـــان وتتــــــار
علـى جيـوش كفـــــار	يـــارب يـــا ستــــــــار
من الشرق أهـم جايين	عالغـــرب متحـديــــن
متخـالفين فى الـديـــن	وهيصبحـ ـوا أصهـــار
الكـنب خـان أبـو عين	عوره يا خـدهـا ومـين
وأبـو شنـب شــــبريـن	بنت الخـــواجه بشــــار
أجــــلاف ورا أجــلاف	عالمسلمــين أحـــــلاف
والمسلمـين ما تخــاف	إلا إلـــــه جبــــــــــــار
جيـش التتر أهـو خــاب	فى عين جالوت يا احباب
وجيش لويس أهو داب	فى طــين وميه عكــــار

وعـــلى الفـــور أرســـل الســـلطان بيـــبرس الأمـــير عـــلاء الـــدين البندقـــدار عـــلى رأس قـــوة مـــن الجنـــد، وأمـــره أن يقـــيم فى أطـــراف بـــلاد الشـــام عـــلى أهبـــة الاســـتعداد لصـــد المغـــول. ولم يكتـــف بيـــبرس بـــذلك وإنمـــا خـــرج بنفســـه فى جـــيش جـــرار لملاقـــاة العدو.



شعار السلطنة فى عهد بيبرس

وتـــذكر الســـيرة الشـــعبية أن بيـــبرس نظـــر إلى الجـــيش الـــذى يقـــوده فتحركـــت أريحيته وفاضت قريحته وقال ما يقوله الأبطال :

ألا فى سبيل اللـه تهـون المصاعب	ولا أمـر يصعب فى سبيـل اللـــه
الأرض مـــن شـرق لغـــرب يلفـهـا	فى خطـوه واحـده كل من ولاه
والشامخـات مـن الجبـال الـرواسى	الـواعـرات تـدوب تحت خطـاه
و البحـر يجمـد لـو تمـر الكتـــايب	عليه مجاهده فى سبيـل رضـاه
وتحت صهد الشمس والصخـر دايب	يمشى المجـاهـد والنسيـم ويـاه
والـــذل والخســـران جعلهـم إلهـى	سيما تمـيز كـــل مـن عـــاداه
حـــاشا إلهى قـدرته تخــلق الـتتر	ولا هـو يخلـق ضـدهم حاشـــاه
يـا رب تجعلهـــــم لسيفـى غنيمـه	واللـى تـــــوفـى أنت تتـــولاه
جعلـت جنكـيز خان فى أسفـل جهنم	وابنه هولاكو فى السعير مسواه
تتر إذا الشيطـان وصـفـوه باسمهـــم	وهـو المخلـد فى الجحيم يـأبـــاه



لا لتورث الحكم

ســادت فى عصرــ المماليــك فكــرة " الخداشــة " أى الزمالــة، فهــم جميعــا زمــلاء لا فضــل لمملــوك عــلى آخــر إلا بمــا يتمتــع بــه مــن مواهــب وقــوة وصــفات خاصــة، وقــد أدت هــذه الفكــرة بالمماليــك إلى رفــض مبــدأ وراثــة الملــك. وإذا وجــدت حــالات نجــح فيهــا بعــض ســلاطين المماليــك فى تأســيس بيــوت احتفظــت بــالحكم مــدة طويلــة - كــما حــدث فى بيــت قــلاوون - فــإن هــذه الحــالات كانــت خروجًــا عن تلك القاعدة وذلك المبدأ.

إلا أن غريــزة الأبــوة لــدى الســلطان بيــبرس غلبــت عليــه فــأراد أن يضــمن توريــث الملــك مــن بعــده لابنــه " الســعيد "، وربمــا اغــتر الســلطان بيــبرس بمــا حققــه مــن أعــمال وبمــا وصــل إليــه مــن نفــوذ واســع لم يدركــه أحــد قبلــه مــن ســلاطين المماليــك ، فظــن أنــه حقــق لنفســه ولبيتــه مــن المجــد مــا يكفــل لابنــه تــولى الحكــم مــن بعده دون اعتراض من كبار الأمراء

وقــد احتفــل بيــبرس ســنة 1264 م بســلطنة ابنــه الملــك " الســعيد " احتفــالا كبــيرا، فأركبــه بشــعار الســلطنة وخــرج الســلطان بنفســه فى ركابــه ماشــيا عــلى قدميــه، وقــد زينــت القــاهرة أحســن زينــه. وبعــد ثلاثــة أيــام جمــع بيــبرس الأمــراء والقضــاة والفقهــاء وقــرئ تفــويض عهــد الســلطنة للملــك الســعيد مــن بعــده، وجــاء فيــه "... كانــت شــجرتنا المباركــة قــد امتــد فــرع منهــا تفرســنا فيــه الزيــادة والنمــو وتوســمنا منــه حســن الجنــا المرجــو... فليتقلــد الولــد مــا قلــدناه مــن أمــور العبــاد وليشاركنا فيما نباشره من مصالح الثغور والقلاع والبلاد...".

وقد جاء بالسيرة الشعبية أن بيبرس توجه لابنه قائلا " اسمع يا بنى التركه اللى هاسيبهالك من بعدى تركة كبيرة، بس مش كبيره بالجواهر والكنوز، كبيره بالأعباء والمسئوليات، الأمه دى بحالها أمانه فى رقبتك، ولو عيل صغير وقع فى الطريق يسألك ربنا ليه ماسوتشى الطريق قدامه.. اللى يجرى ورا الحكم من غير ما يقدر المسئوليه، هو زى الفراشه اللى بترمى روحها فى اللهب وفاكراه مجرد لهب وبريق، وهو فى الحقيقة دمار وحريق.. الإمام العادل عند الله سيد الشهداء ومن السبعه اللى يظلهم الله بعرشه يوم لا ظل إلا ظله، ثم أنشأ يقول.. صلوا على طه الرسول:

أحكى وأبدى يا "سعيد " الكلام ... واصلى عالهادى نبينا الأمين
مرادى أشرح لك تاريخى بكلمه ... تلم من عمر السنين خمسين
اليُتم والغربه بداية حياتى ... ونهايتى أهو سلطان على المسلمين
ربانى نجم الدين ربابة فوارس ... تشبه رباية الشبل جوا العرين
وعيت من الدنيا على ظهر رامح ... يجرى ودرعى شمال وسيفى يمين
قضيت حياتى من ميدان لميدان ... عدد سنينى من الدنى ميادين
لا عرفت طعم النوم إلا خطيفه ... لو كان يلين الحديد عزمى أنا ما يلين
فى ملحمة لافرنج ربى نصرنى ... ولويس أسرته وكنت فى العشرين
وواجهت هولاكو التتارى وهزمته ... فى عين جالوت وطحنت جيشه طحين
وادينى طهرت البلاد من الدسايس ... ما تركت شده فى الأمور أو لين
إيش بعد أنطاكيه وتسليم طرابلس ... غير وحدة الأمه فى دنيا ودين

على أن ما أقدم عليه بيبرس لم يفلح فى تثبيت مركز ابنه الملك السعيد فى السلطنة بعد وفاته، وتعرض أبناؤه لدسائس الأمراء حتى انتهى الأمر بقيام السلطان قلاوون فى الحكم.



يا إفرنج يا

أدرك الظاهر بيبرس أن دولته تواجه حلفا قويا يربط بين اثنين من ألد أعدائه هما الصليبيون (الإفرنج حسب تسمية تلك الأيام) ومغول فارس، وقد تكون الاتجاهات والمصالح الخاصة لهذين الخصمين متباعدة أو متعارضة، ولكن غاية واحدة ربطت بينهما، هى العمل على اجتياح البلدان فى المشرق العربى، وإذا كان السلطان بيبرس قد أدرك هذه الحقيقة، فإن خطته اتجهت إلى القضاء على هذين الخصمين كل على حده.

أما عن الصليبيين فكانوا أقرب مكانا وأيسر منالا من المغول، فضلا عن أن قلاعهم ومدنهم كانت بمثابة جزر متناثرة وسط محيط عربى واسع يخضع معظمه لسلطة بيبرس، ثم أنه كان يدرك جيدا الدور الذى قام به الصليبيون فى المؤامرات التى حاكها أمراء بنى أيوب لدولة المماليك عند قيامها،

فضلا عن أنه نازلهم فى معركة المنصورة وسبر غورهم وأحاط علما بأساليبهم الحربية، ووقف على حقيقة قوتهم ونشاطهم السياسى؛ ولهذا كله اختص بيبرس الصليبيين بالجزء الأكبر من جهوده.

وكان بيبرس فى حروبه ضد الصليبيين صريحا غير ملتو، مما جعل أعداءه يعرفون دائما أغراضه واتجاهاته، ولم تمر سنة من السنوات العشر الواقعة بين سنة 1261، 1271م دون أن يوجه حملة أو يقوم بغارة على الممتلكات الصليبية بالشام، وفى تلك الأثناء كان يلجأ أحيانا إلى توقيع المعاهدات وعقد الهدنات مع الصليبيين إذا أحس بحاجته إلى ذلك، ولكنه لم يجد غضاضة فى أى وقت فى خرق تلك المعاهدات ونقض تلك الهدنات قبل انقضاء أجلها التقليدى وهو عشر سنوات وعشرة شهور وعشرة أيام، وقد بدأ الاحتكاك بين بيبرس والصليبيين عندما أغار بعض أمرائه على أعمال إمارة أنطاكية سنة 1260م.

وفى سنة 1263 شرع السلطان بيبرس فى القيام بهجوم شامل على الصليبيين بالشام، وكان أن اتجه من غزة إلى جبل الطور قرب عكا، وعندئذ تملك الصليبيين الخوف فأرسلوا إليه يظهرون التوبة والتمسك بالهدنة، وأخذوا يتذللون للسلطان بيبرس ويطلبون " مراحم السلطان " ويتعهدون بفك أسرى المسلمين والمحافظة على العهود والمواثيق.

وفى هذا المقام أنشأ أحد مرافقى السلطان يقول.. صلوا على طه الرسول:

بَعتْ " البوهيموند " مَراسيله يطلـب إحسـان

ويقــول يـا بيبرس إحنا أحبه وبقينـا جــيران

وملــوك لافـرنج يا سلطـــانـا ملهـاش أمـــان

بعت البوهيموند وهو شـايف جيشك منصــور

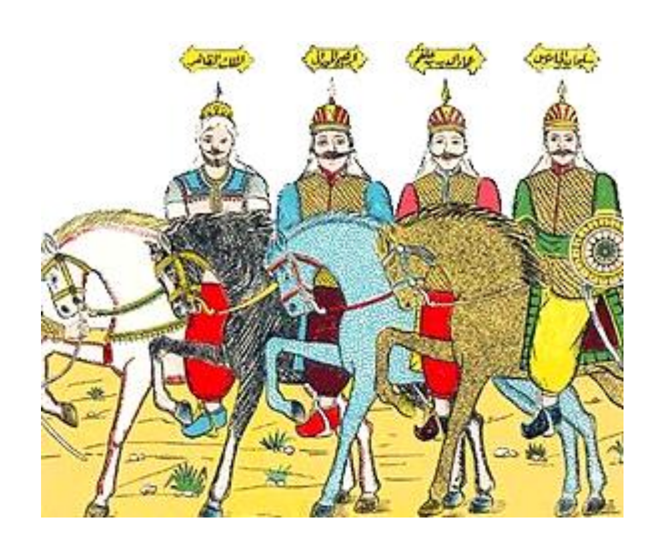
والآن "هـلاوون" وأجنـــاده باتــوا فى قبــــور

وطى لـــودان وحـــق اللـــــه وطى لــــودان

وأول مايشــوف منــك غـفـــله أول مايشـــوف

ينزل كــفين علــى جيشــك يكســح ويشــــوف

إفـرنـج جبـــان عليـــــم اللـــه إفـرنـج جبــــان



رسم شعبى للظاهر بيبرس ورفاقه

---

* "بوهيموند " كان ملك أنطاكية وطرابلس.

* " هلاون " هو اسم هولاكو فى الأدب اشعبى المصرى.

فــرد الســلطان عــلى الرســل قــائلا: كــان هــذا قبــل خروجــى مــن مصرــ في هــذا الشــتاء وهــذه الأمطــار ووصــول العســاكر إلى هنــا، ثــم أنشــأ يقــول.. صــلوا عــلى طه الرسول:

مــن بعــد حمـــد اللــه أصــلى عــلى النبى   اللى الإله سماه رءوف ورحيم

إحنـــــا بحمــــد اللـــه أمـــــة محـمـد   اللى حماها اللـه بالـ ح و م

حـــــم سبـــــع مـــــرات فيهـــــا حمـــايه   تصد عنا كـل خطب جسيـــــم

طهـــرت أرض اللـــه مـــن عابـــدى الوثـن   وولاد هولاكو بيتوا في جحيـــم

فاضــــل جيـــوش لافـــرنج الـــلى وجـودها   في أرضنـا غصه لكل كـريـــــم

الســــافل "البوهيمونـــــد" منــــه استجارت   أنطـاكيـه أم تــاريخ قديـــــم

كـــــذاك عكـــــا وصـــــور ويافـــــا في كل منها غول فرنجى زميـم وحيفـــا

يـــا افـــرنج يـــا أنـــــدال إن لـــــم يحـــرم على نفسى تشـم نسيـــم أصـــــدكم

والـــلى مـــا يـــدفع عـــــن بـــلاده ماله مقام محفوظ وماله حريـــم الأعـــادى

وإزاى يـــــدوق النـــــوم ويهنـــــا اللى يشوف في كل ركن غريـــم فـــؤاده



هـولاكـو

استراتيجية الحرب

كـــان الســـلطان بيـــبرس يتبـــع خطـــة تســـتهدف مهادنـــة بعـــض القـــوى الصـــليبية- التـــى تحتـــل مـــدن الشـــام الســـاحية - دون الـــبعض الآخـــر، فبيـــنما هـــادن بـــيروت وصـــور، فإنـــه حـــرص عـــلى عـــدم مهادنـــة عكـــا وطـــرابلس وأنطاكيـــة مـــما أتـــاح لـــه ميـــدانًا للعمـــل ضـــد الصـــليبيين فى ســـواحل بـــلاد الشـــام الشـــمالية والجنوبيـــة. وفعـــلا لم يكـــد يفـــرغ مـــن الاســـتيلاء عـــلى حصـــن الشـــقيف أرنـــون حتـــى اتجـــه شـــمالا، فمـــر قـــرب بانيـــاس وقصـــد طـــرابلس حيـــث أغـــار عـــلى ضـــواحيها والجهـــات القريبـــة منهـــا، وسرعـــان مـــا أفزعـــت هـــذه الأحـــداث أمـــراء الصـــليبيين فى الحصـــون والقـــلاع المجـــاورة فأسرعـــت صـــافيتا وأنطرســـوس إلى تقـــديم فـــروض الـــولاء والطاعـــة لـــه. ثـــم اســـتأنف بيـــبرس ســـيره، فمـــر بحمـــص وحـــماه دون أن يعـــرف احـــد حقيقـــة مقصـــده، وأخـــيرا وصـــلت جيوشـــه إلى أنطاكيـــة فأحاطـــت بهـــا مـــن كـــل جانـــب، وعندئذ اتضحت نيته فى الاستيلاء على هذه المدينة.

والمعروف أن أنطاكية مدينة كبيرة قوية التحصين، سبق أن عجز الأباطرة البيزنطيون أنفسهم عن أخذها من الصليبيين؛ لذلك اختار بيبرس أن يكتب إلى الصليبيين فى أنطاكية يدعوهم وينذرهم بالزحف عليهم، وفاوضهم فى ذلك ثلاثة أيام وهم لا يجيبون. وكان أن أخذ بيبرس فى شن هجوم عام على المدينة، حتى نجح رجاله فى اقتحامها وعندئذ فرت الحامية الصليبية وعددها ثمانية آلاف إلى القلعة وأرسلوا يطلبون الأمان فأمنهم السلطان بيبرس.

وهكذا تم استيلاء بيبرس عى أنطاكية فى أواخر مايو سنة 1268. ولم يفت بيبرس أن يكتب رسالة إلى الملك بوهيموند صاحب
أنطاكية وطرابلس - وكان عندئذ مقيما فى طرابلس - بذلك
الأسلوب التهكمى اللاذع الذى اشتهرت به رسائله وختمها بقوله:

حلفت يا بوهميوند بالله خالقى ... ما يفوت عليك العام يا شحات

ما يفوت عليك العام فى أرض العروبه ... ودا فات منها اللى عدى وفات

انت وأمثالك كلاب السواحل ... على العباد غليتم الأقوات

إن كنت مره تلف حُول القوافل ... هتلف ويايا سبع لفات

إذا بيت يا بوهميوند فيها ما تصبح ... وإن كنت تصبح مستحيل تبات

أنطاكيه هاجعلها لجيشك قرافه ... وانت أجعلك حاكم على الأموات

وتستغيث يا جبان باللى يغيثك ... بشربة الميا ولا تتغات

المسلمين اللى نهبتم فلوسهم ... هيقبضوها منكم عشرات

والمسلمات اللى لمستم جُسمهم ... هيقطعوكم من جسمكم بالذات

والواقـع أن اسـتيلاء بيـبرس عـلى أنطاكيـة كـان أعظـم فـتح حققـه المسـلون عـلى حسـاب الصـليبيين فى بـلاد الشـام منـذ اسـتيلاء صـلاح الـدين الأيـوبى عـلى بيـت المقـدس سـنة 1187م؛ لـذلك كـان فـرح المسـلمين بـذلك الفـتح عظـيما، وكُـتبت البشـائر إلى الأقطـار الشـامية والمصرـية حيـث أقيمـت الزينـات والأفـراح. أمـا بالنسـبة للصـليبيين فقـد كـان ضـياع أنطاكيـة أعظـم مـن مجـرد كارثـة حربيـة، لأنـه بصرـف النظـر عـما لهـذه المدينـة مـن مكانـة كـبرى فى تـاريخ المسـيحية الأول، فأنـه لا يخفـى علينـا أن أنطاكيـة كانـت مـن أولى الإمـارات التـى أسسـها الصـليبيون فى الشرـق فى الحملـة الصـليبية الأولى سـنة 1098م، وأنهـا منـذ ذلـك الوقـت ظلـت بمثابـة القلعـة الكـبرى للصـليبيين فى بـلاد الشـام.لذلك جـاء سـقوطها عـلى يـد بيـبرس نـذيرًا بانهيـار البنـاء الصـليبى بالشـام، وإعلانـا لحركـة الجهـاد الكـبرى التـى شـنها سـلاطين المماليـك ضـد الصـليبيين، وهـى الحركـة التـى لم تنته إلا سنة 1291م بطرد آخر البقايا الصليبية من الشام.

*****



بيبرس.. فى الحرب لم تخذل له راية

فى الوقــت الــذى تــزعم فيــه الســلطان الظــاهر بيــبرس حركــة الجهــاد ضــد الصــليبيين، تزعمــت جزيــرة قــبرص القــوى الصــليبية فى الشرــق الأدنى فى عــدوانهم عــلى المســلمين. وكانــت هــذه الجزيــرة قــد شــهدت فى أواخــر القــرن الثــانى عشرــ المــيلادى قيــام أسرة جديــدة فى حكمهــا وهــى أسرة آل لوزجنــان الصــليبية. وفى ســنة 1269م جمــع هيــو الثالــث لوزجتــان بــين تــاجى قــبرص ومملكــة بيــت المقــدس الصــليبية فى عكــا، مــما مكــن ذلــك الملــك مــن القيــام بــدور نشــيط فى محاربة المسلمين بوصفه حاكما على أكبر دولتين للصليبيين فى الشرق.

وقــد بــدأ الملــك هيــو الثالــث سياســته العدوانيــة ضــد بيــبرس بــأن قــبض عــلى رســل الســلطان وهــم فى طــريقهم إلى الســلاجقة الــروم، وذلــك عــلى الــرغم مــن الأمــان المعطــى لهــم، عــلى أنــه يبــدو أن بيــبرس لم يكــن مســتعدا فى ذلــك الوقــت للقيــام بعمــل حــربى كبــير ضــد جزيــرة قــبرص وملكهــا، فــاكتفى بــدعوة بعــض زعــماء الصــليبين وعــاتبهم عتابــا شــديدا وتعــرض بيــبرس لملــك قــبرص بالنقــد القــوى والتحقير الشديد والتهديد والوعيد.

ولم يكــن بيــبرس بالرجــل الــذى يقــول ولا يفعــل، بــل أنــه سرعــان مــا ألحــق تهديــده بــالتفكير فى غــزو قــبرص، وأخــذ يعــد العــدة لــذلك، وفى هــذا المقــام استحضرــ بيــبرس مــا قــام بــه معاويــة بــن أبى ســفيان حــين كــان واليــا عــلى الشــام حيــث اســتأذن الخليفــة عــثمان بــن عفــان فى غــزو قــبرص، واتجــه الأســطول الاســلامى إليهــا عــام 28 هجريــة وتــم انتزاعهــا مــن البيــزنطيين، وأنشــأ بيــبرس يقــول.. صــلوا على طه الرسول:

صلى عليك اللـه فى كـل لحظـه	يا خـير من أرشد وقـاد الكتايب
بمفـردك خلـيت مكـه وأهلـهـا	ورجعتها بجيوش تغطى السحايب
واصحـابك الأبـرار سلكوا سبيلك	من كل رأى سديـد وعقل صـايب
يرحــم أمـير المؤمنين معـاويه	بنى لها الأسطول وشـد الـركايب
وبعـد ما كانت مــلاذ للأعــادى	بقت الجـزيره منـتزه للحبـايب
قبرص أيا جنه على البحر عايمه	فيكى الثمار للطير حاضر وطايب

وسرعـان مـا سـنحت الفرصـة لبيـبرس سـنة 1270م عنـدما علـم أن هيـو الثالـث حضرـ إلى عكـا يتفقـد شـئون مملكـة بيـت المقـدس، فـرأى بيـبرس أن يـداهم الجزيـرة فى غيبتـه، وكـان أن أسرعـت المراكـب المصريـة - وعـددها سـبع عشرـة - إلى جزيـرة قـبرص، غـير أن ريحـا عاصـفة هبـت عـلى السـفن عـلى مقربـة مـن ليماسـول، فانكسرـ منهـا أحـد عشرـ مركبـا، وتـم أسر مـن فيهـا مـن الرجـال، أمـا المراكب الباقية فقد نجت وعادت سالمة.

ولم يسـتطع هيـو الثالـث أن يخفـى شـماتته، فأرسـل إلى السـلطان بيـبرس يخـبره بانكسـار سـفنه وأسر رجالـه، واختـار بيـبرس أن يجعـل مـن الهزيمـة نصرـا ومـن الانكسـار ظفـرا فقـال " الحمـد للـه ! منـذ ملكنـى اللـه تعـالى مـا خـذلت لى رايـة، وكنـت أخـاف إصـابة عـين، فبهـذا ولا غـيره !!". ثـم بـادر بيـبرس بكتابـة رسـالة إلى هيـو الثالـث، بـذلك الأسـلوب التهكمـى الـلاذع الـذى اشـتهرت بـه رسـائله. وصـادف عندئـذ أن كـان بيـبرس قـد اسـتولى عـلى حصـن القـرين، فـوازن السـلطان فى رسـالته بـين فـتح حصـن القـرين وبـين مـا يدعيـه هيـو الثالـث مـن نصرـ زائـف مرجعـه الـريح والعواصـف لا شـجاعة الرجـال وبـلاء الفرسـان؛ قـال " ومـا العجـب أن يفخـر بالاسـتيلاء عـلى حديـد وخشـب، الاسـتيلاء عـلى الحصـون الحصـينة هـو العجـب.. ومـا النصرـ بـالهواء مليـح، وإنمـا النصرـ بالسـيف هـو المليـح..ونحـن ننشـئ فى يـوم واحـد عـدة قطـايع (سـفن) ولا ينشـأ لكـم مـن حصـن قطعـة، ونجهـز مائـة قلـع ولا تجهـز لكـم فى مائـة سـنة قلعـة. وكـل مـن أعطـى مقـدافا قـدف ومـا كـل مـن أعطـى سـيفا أحسـن الضرـب بـه أو عـرف.. وأنتم خيولكم المراكب ونحن مراكبنا الخيول ".





الجزء الثانى

مشـاهد مـن
السـيرة الشـعبيـة

يا مغيث !

في زمـــن فاصـــل بـــين معـــارك الظـــاهر بيـــبرس الجهاديـــة المتتاليـــة مـــع المغـــول والصـــليبيين، جلـــس فى ديـــوان القلعـــة مـــع وزيـــره زيـــن الـــدين ابـــن الـــزبير، وهـــو يعتـــبر مـــن أشـــهر وزراء ذلـــك الزمـــان والـــذى آتـــاه اللـــه مـــن عظـــيم المواهـــب وجزيـــل المـــنن، وكـــان أمـــام الســـلطان والـــوزير عـــدة كتـــب فى التـــاريخ والأدب والرياضـــة، وكـــان الســـلطان وابـــن الـــزبير ينسى كـــل مـــنهما نفســـه إذا خـــاض فى العلم والفن والأدب. وفى هذه الجلسة دار حوار بين السلطان بيبرس ووزيره



على النحو التالى:

السلطان: ما رأيك يا زين الدين في الشعر والشعراء ؟

زيـــن الـــدين: أحســـن مـــا قيـــل في الشـــعر والشـــعراء هـــو قـــول اللـــه عـــز وجـــل " وَالشُّـــعَرَاءُ يَتَّـــبِعُهُمُ الْغَـــاوُونَ".. يعنـــى الـــلى عـــايز يمـــلا دماغـــه بأوهـــام مزخرفـــه وصـــور مزيفـــه يروح للشعراء ويحفظ شعرهمويتبع خطواتهم.

السلطان : والسلطان اللى يذبح أبناء الناس ويستحيى نساءهم، ويبنى من أموالهم قصر من المرمر ويفرشه بالسندس والديباج دا يبقى من أكبر الغاوين اللى يحبوا الشعراء، عايزهم يقولوا له يا أعدل العادلين ويا أكرم الأكرمين مثلا.

واللى قال:

ألم تر أن الشمس كانت مريضة　　　فلما أتى هارون أشرق نورها

ويصدق هارون إن ميلاده شفى الشمس من مرضها.

زين الدين: والبحترى هو الآخر يقول للمتوكل:

لو أن مشتاقًا تكلف فوق ما... في وسعه لسعى إليك المنبر

بيبرس: ومادام المنبر هيمشي على رجليه للمتوكل.. يروح آمر للشاعر بـ 50 ألف دينار.

زين الدين: أهى الدنانير دى جعلت الشعراء يعصروا قرائحهم ويخترعوا أكاذيب تنفع لعب أطفال.. والمتنبى العظيم يقول لابن آدم زيه واللى ربما يكون أقل منه في العلم والفضل:

أو كان صادف رأس عازر سيفه　　　في يوم معركة لأعيا عيسى

أو كان لج البحر مثل يمينه　　　ما انشق حتى جاز فيه موسى

أو كان للنيران ضوء جبينه　　　عبدت فصار العالمون مجوسا

عشان يطلع الفلوس من جيب الملك قرب يكفر.. أنا خلاصة رأيى في المادحين والممدوحين إنهم شوية شحاتين بيتلطعوا عند شوية لصوص.. كُتب الأدب والتاريخ كلها مشحونه بالثناء على الكرام اللى من أمثال معن ابن زائده وأبو دنف ويحيى البرمكى، مفيش مؤرخ أو مؤلف سألهم الفلوس اللى بيبعتروها دى جايبينها منين ؟.. طبعا من جيوب الناس وأرزاقهم، الله يرحم الناس اللى كانوا عايشين في هذه الأزمنه المظلمه.

زين الدين: نعود ونقول يا سيدى السلطان إن الشعراء شغلوا أنفسهم بالمديح؛ لأنهم عايزين يعيشوا، أما غير مدايح الملوك بنقرا لهم مقطوعات ومطولات رائعه تدل على أن عقول العرب أكبر عقول ظهرت في بنى الإنسان، زى معلقة امرؤ القيس وسينية البحترى.

بيبرس : أنا أيام ما كنت متفرغ للمطالعه كنت أقرأ الديوان كله عشان أختار منه ثلاث أو أربع أبيات وساعات بيت واحد.. شوف عمرو بن معد يكرب الشجاع الجبار اللى حضر الجاهليه والإسلام له قصيده عينيه اخترت منها بيت واحد وجعلته دستورًا أمشى عليه في حياتى كلها:

إذا لم تستطع شيئا فدعه   وجاوزه إلى ما تستطيع

زين الدين: دا مدهش يا سيدى السلطان، دى الحكمه اللى نزلت على ألسنة العرب.

بيبرس : وأبيات ظهرت اليومين دول لشاعر أندلسى عايز أكتبها بالدهب هنا على جدران بيتى:

مما يزهدني في أرض أندلس ألقاب معتمد فيها ومعتضد

ألقاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكى انتفاخا صورة الأسد

كل مدينه في الاندلس لها خليفه سمى نفسه امير المؤمنين وله منبر يدعو له كل يوم الجمعة، إحنا واقعين في الحاله دى.. حماه فيها المنصور ولقبه أظن " المعتمد"، وحمص فيها شيركوه ومسمى نفسه " المعتضد " وأمير المؤمنين بقى اللى عايز يحكمنا كلنا اللى اسمه المغيث.

زين الدين : يا مغيث !

حقوق الأسرى

وصل السلطان بيبرس إلى دمشق بعد إحدى معاركه المنتصرة ضد إمارات الإفرنج الموجودة بسواحل الشام، وبينما هو فى سرادق أعد لاستقباله والاحتفال بالنصر، قدم عليه وفد من قبل"البوهيموند" ملك أنطاكية يطلب الصلح وعقد معاهدة عدم اعتداء معه؛ فعمت الفرحة بين جموع الناس وأنشد المنشد يقول.. صلوا على طه الرسول:

أيا يا بيبرس يا أمه يا عالى الروح والهمه

أيا محموده أفعالك ويا اسمًا على مسمى

ملوك الروم فى حصونها خلقت الرعب فى عيونها

إذا سمعت بدبوسك بنور الشمس تتغمى

لويس اللى ارتفع تاجه على المالح وأمواجه

بأسطوله وأبراجه جعلته للسمك رمه

وهولاكو عدو الله وجيشه كالجراد والله

فى عين جالوت يا ماشا لله عليهم طمت الطمه

و"هالبوهيموند" شيعلك رسول يركع على نعلك

دا البوهيموند من فعلك يبات الليل فى غمه

الدبوس : أداه للقتال



رسم تخيلى لوجه
الظاهر بيبرس

بعد أن استمع السلطان بيبرس لوفد الإفرنج، ذكرهم بأسرى المسلمين لدى ملكهم البوهيموند، حيث يعاملون أسوأ معاملة، بينما أسراهم يعاملون - كما أمر ديننا الحنيف - معاملة حسنة، ثم أرسل معهم رسالة إلى ملكهم يقول فيها :

أيا بوهيموند خبرنى	**على ما نويت للأسرى**
شباب فى عزهم ذاقوا	**لديك الذل والحسره**
مسخرهم فى أقذارك	**وماتحلش لك السخره**
ولا تطعمهم اللقمه	**ولا تدفع لهم أجره**
وأجسادهم من الكرابيك	**بتتمزق وتتهرى**
وأسراك عندنا بتنام	**على طراريح وأسره**
بيتاوبوا ويتمطوا	**ولا ذاقوا التعب مره**
ومره يلعبوا الكونكان	**ومره يلعبوا البصره**



بعد أن استولى المغيث عمر على مدينة الكرك بفلسطين، سولت له نفسه الهجوم على مصر - بعد أن استقر بها الظاهر بيبرس - والاستيلاء عليها هى وغيرها من البلاد بحجة أنه من سلالة صلاح الدين الأيوبى؛ ولهذا الغرض استعان ببعض جموع الأكراد الذين فروا من وجه المغول، كما أنه تواطأ مع المغول ضد المسلمين فى سبيل استرداد سلطان بنى أيوب، وعندما علم الظاهر بيبرس بذلك خرج من مصر قاصدا القضاء عليه، ولما نزل بجيوشه فى مدينة غزة، دخلت عليه أم المغيث تستشفع فى ولدها فقبل بيبرس الشفاعة كعادته فى العفو عن خصومه، لكنه اشترط أن يحضر المغيث بنفسه إلى مدينة بيسان لمقابلته ودار بينهما الحوار التالى:

المغيث : أنا أجبت رغبة والدتى وحضرت ليك بناء على طلبك يا بيبرس.

بيبرس: (ساخرا) كتر خيرك.. طاعة الأمهات من طاعة الله.

المغيث : اتفضل قول لى إيش طلباتك ؟

بيبرس :انت مضحك ومسلى.. طلباتى يا سيدى انك تسلمنى العساكر الأكراد اللى عجزت عن أكلهم وشربهم، عايزهم يقعدوا عندى ضيوف.

المغيث: وبعد كدا ؟

بيبرس: بعد كدا انت نفسك ترجع معايا على مصر.

المغيث: ضيف برضك ؟

بيبرس: إذا شئت.. لكنك فى الحقيقه أخ وصاحب بيت.

المغيث: وليش تحرمنى أنا من الواجب دا ؟ خلى الأكراد يرجعوا على مصر وانت تعالى فى الكرك أخ وصاحب بيت.

بيبرس: طبعا أنا وجيشى اللى من غير الأكراد.

المغيــث:إذا كنــت يــا ســلطان مصرــ بتقــول إن أنــا عجــزت عــن إطعــام 12 ألــف، فكيف عايز تكلفنى إطعـام 80 ألف عسكرى جايبهم معاك ؟

بيــبرس:مــاتخفش أنــا كنــت بــأمزح معــاك.. واســمع يــا ملــك يــا مغيــث.. لا تيجــى عنــدى ولا آجــى عنــدك.. يظهــر انــك مــش واثــق فىّ ولا أنــا واثــق فيــك، خلينــا هنــا فى بيســان نســتريح كــام يــوم وبعــدين أنــا وانــت نتبــارز أمــام جيشــك وجيشىــ ونوصى الجيشين إن اللى يغلب التانى يتبعوه.

المغيث: يغلبه يعنى إيه ؟

بيبرس: يعنى يقتله مثلا.

المغيث: أنا ألوم نفسى اللى سمعت كلام امرأه وجيت أفاوضك.

بيبرس: قصدك أمك يا مغيث الدوله ؟

المغيــث: أيــوه يــا ســيدى حســبت نفسىــ هصــافح راجــل راغــب فى الصــلح، لكــن وجدتك زى ما انت سفاك..سلجوقى.. تركى وديليمى.

بيــبرس: لكــن أنــا مــش هــاقول لــك يــا كــردى أو يــا بنطــى ولا كلــدانى، كــل الأصــول التــى تنتمــى ليهــا عيلــة صــلاح الــدين، الإســلام جعلنــا أمــه واحــده والحمــد للــه عــلى المنزلــه الرفيعــه الــلى رفعنــا ليهــا اللــه عــز وجــل، ونعــوذ باللــه مــن الانحــدار إلى سفالة الشعوبيه والتفاخر بالجنسيات.

المغيــث: يــا بيــبرس النــاس مخلــوقين ســاده وعبيــد وأقويــه وضــعفاء لحكمــه يعلمها الله.

بيــبرس: الحكمــه لا تخفــى إلا عــلى الجهــلاء، الأذكيــاء النبهــاء يقــدروا يفهموهــا، اســمع أنــا جايــب معايــا شــاعر ظريــف عشــان يســلينا فى الســاعات العصــيبه هاخليك تسمعه، ثـم نـادى علـى الشـاعـر أبو سليمان

ووجه إليه الحديث قائلا : قال الله تعالى:

"ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير"، عايزينك تفسر لنا الآية دى عشان يفهما العوام. فأنشأ أبو سليمان يقول.. صلوا على طه الرسول:



يصور ربى ويكوّن	ويرسم ربى ويلوّن
عشان العيشه تتهوّن	على المخاليق وعليا
عشان بنت الحبش يحلى	فى عينها الشاب لافرنجى
ويحلى الأسمر الزنجى	في عين الانجليزيه
عشان ماتوه وتتحير	في روض الحسن وتغير
تنسيك أم شعر أصفر	قوام الزنجباريه
تشوف البيضا كحلها	بكحل الفن والقدره
وسمرا والعيون خضرا	بأوصافك يا مصريه

الأمان.. حق الرعية على الراعى

بينما كان بيبرس جالسا فى مجلس السلطنة بدمشق، دخل عليه وفد من أعيان التجار وأصحاب القوافل التى تسير بين شمال سوريا وجنوبها، وأخذوا يشكون من فداحة الضرائب والمكوس والإتاوات التى يتقضاها البوهيموند ملك أنطاكية فى الذهاب والإياب، وكان المتحدث باسم الوفد يدعى العيداروس التهامى فأنشأ يقول.. صلوا على
طه الرسول:

نكبه على الإسلام حلت مطمطمه ... ولا عاد مسلم فى بلاده يعيش
على ما يقول العيداروس التهامى ... ومهما زاد فى القول مايكفيش
قضيت طول عمرى أسير بالقوافل ... محمله من حضرموت لعريش
لا الوحش فى الفلوات يهوب علينا ... ولا حوالينا تطير خفافيش
من الفرات الأرض إحنا سادتها ... إلى شطوط النيل وغيرنا ما فيش
طلع لنا البوهيومند فى كل مرحله ... وكل خطوه يطلب البقشيش
رجال معاها حراب تلمع سنانها ... وتشير إلى صدر اللى ما يديش
وفى صدور الغيد لعبت إيديهم ... أفعال فى شرع الله ما ترضيش
من عسكر البوهيموند شفنا المذله ... من ستر يتفضح ومن تفتيش
والقافله تدفع الإتاوه مقدم ... وفى الروحه والجايّه ولو ماتجيش
ادرك عباد الله وأهل المفاسد ... اقطع ضرايرهم ولا تخليش

الغيد : جمع غيداء أى الفتاة شديدة الجمال ناعمة الملمس.



وكـان بيـبرس عـلى علـم تـام بمـا يفعلـه الإفـرنج اللئـام بقوافـل المسـافرين؛ ولـذا عـزم عـلى عمـل ترتيـب عجيـب، وهـو أن سـير قافلـة فى الطريـق المعتـاد مـن الجـمال تحمـل الصـناديق المصـفحة بالـذهب والفضـة التـى تخطـف الأبصـار، ويتقـدم هـذه القافلـة كـل مـن العيـداروس التهـامى وحسـون النقيـب صـديق بيـبرس وبجانـب كـل جمـل جـمّال ملـثم، بيـنما بيـبرس فى آخـر القافلـة في ملابـس جمّـال فقـير. وكـان رئـيس لصـوص البوهيومنـد مسـتعرب يـدعى "بـاولو" ومعـه من اللصوص أربعون،

ولما رأى القافلة لا تحمل سلاحا ظاهرا نادى بأعلى صوته لتتوقف، وكانت هذه إشارة لبدء خطة معدة من قبل بيبرس مسبقا للقضاء على هؤلاء اللصوص، وأنشأ العيداروس يقول.. صلوا على طه الرسول:



عصابة البوهيموند باتت كلها	على مشانقها و"باولو" قبلها
على كل ربوه وتل قامت مشنقه	من السنط والبلوط شايله حملها
جتت من الإفرنج فوق رؤسها خوذ	شعاع نور الشمس يلمع منها
طالعه على الأرياح تبحث يا عرب	وباتت الأرياح تتلاعب بها
مابين نسور الجو قامت معركه	وبين ذئاب الأرض قامت مثلها
النسر قال يا ديب رزقى في العلا	والديب يقول الأرض رزقى منها
ومرت التجار سايقه حملها	على الدروب ما تخاف إلا ربها
واستعجل البوهيموند باولو وشلته	وأرسل البعثات تبحث عنها
سمعوا طبول العرس قالوا يا عرب	شفتوش فوارس بيض يعجب شكلها
حسون أجاب القوم باللين والعطف	وهما بين جبلين فيها حتفها
وتعلقوا رخرين من فوق الشجر	لحد ما ييجى اللى يسأل بعدها

وأخــذت هــذه القافلــة تتجــول في كــل فــج وكــل درب، وكلــما طلــع عليهــا لصــوص الإفــرنج يطلبــون ثمــن الحراســة قــابلتهم بالترحــاب وقطعــت مــنهم الرقــاب أو علقتهم على الأعواد والمشانق.

الحرب النفسية تسبق القتال



بيــنما كــان الظــاهر بيــبرس يجلــس فى ديــوان القلعــة ذات صــباح، طلــب الاطــلاع عــلى رســائل الحــمام الزاجــل ومــن ضــمنها الرســائل التــى يُحضرــها أحــد أعوانــه المدسوســين لــدى جاســوس الإفــرنج "جــوان" بعــد أن يقرأهــا ثــم يعيــدها مــرة أخــرى إلى مكانهــا، ولمــا اطلــع بيــبرس عــلى هــذه الرســائل وجــدها واردة مــن ملــك أنطاكيــة وملــك صــور وملــك عكــا أى ملــوك المــدن الســاحلية التــى لا تــزال فى أيــدى الإفــرنج، يطلبــون فيهــا مــن جــوان أن يــوافيهم بمعلومــات دقيقــة عــن جيــوش بيــبرس ونوايــاه وعــن عــدد الأسرى الإفــرنج الموجــودين عنــده؛ فتبســم بيــبرس لأنــه يعلــم أن جــوان لــيس إلا نصــاب يأخــذ ولا يــدفع ويقــبض ولا يشتغل، ثم أمسك القلم وكتب يقول وجعل لكل نسخة رسول:

إلى ملوك جالسين على غير عروشهم — إلى دول بنى آدم إلى الخنازير

إلى كلاب ضلت صحابها وأرضها — بنحضر الأطواق والجنازير

بتسألوا عنا وعارفين جوابكم — قبل الحمام من عندكم مايطير

إحنا جنود الله ما يحصى لها عدد — يوم الوغى إلاه عليا قدير

أما نوايانا فلا تستخبى — وسرنا عمره ما كان في بير

أنا كل يوم يا قوم هابعت مصيبه — وابعت لكم قبل المصيبه نذير

عكا وصيدا وصور نوينا حصارهم — وأنطاكيه قبلهم حصارها عسير

في البر زاحفه لكم من الترك والعرب — جيش من مبارز في القتال ومغير

أما السواحل يا لصوص السواحل — جياكم الشفاتير ورا الشفاتير

أما عن الأسرى نبينا محمد — أمرنا بالإحسان لكل أسير

أسيرنا مرتاح طعامنا طعامه — وتحت جنبه مرتبه وسرير

وأسيركم يا مجرمين في دياركم — قاسى الكتير م الجوع والتسخير

ياللى جعلتوا جوان سفيركم فى أرضنا — يا خيبة اللى جوان يكون له سفير





بعـــد جلـــوس الســـلطان بيـــبرس عـــلى كـــرسى الســـلطنة، تكشـــفت شخصـــيته للنـــاس وســـجل التـــاريخ لـــه أكـــثر مـــما ســـجل لغـــيره مـــن الســـلاطين والملـــوك، عـــرف النـــاس بيـــبرس الســـلطان الـــذى يحفـــر الـــترع مـــع الفعلـــه، وعرفـــوه وهـــو الســـلطان يجلـــس بـــين يـــدى ولى اللـــه محيـــى الـــدين ابـــن العـــربى الـــذى ألـــف أكـــثر مـــن مائـــة كتـــاب فى علـــوم الـــدنيا والآخـــرة ومنهـــا كتـــاب الفتوحـــات المكيـــة الـــذى يبلـــغ عشرـــة آلاف صـــفحة، وقـــد أجـــاز هـــذا الـــولى لبيـــبرس قـــراءة كتبـــه وتدريســـها وهـــذه الإجـــازة تعـــد بمنزلـــة الشـــهادة العالميـــة هـــذه الأيـــام. وعـــرف النـــاس بيـــبرس يتتلمـــذ عـــلى يـــد ولى اللـــه الخضـــيرى - المـــدفون الآن بالصـــليبة بالقـــاهرة - وهـــو مـــن أوليـــاء اللـــه المشهورين وكان يمد بيبرس بإشاراته ويدعو له بالتوفيق فى كل عمل.

وفى إحـــدى حلقـــات الـــدرس التـــى يعقـــدها الإمـــام الخضـــيرى بعـــد صـــلاة الفجـــر بمســـجد الإمـــام الشـــافعى كـــان الســـلطان بيـــبرس جالســـا بـــين المســـتمعين لا يتميـــز عنهم بشيء وبدأ ت حلقة الدرس كالتالى:

الإمــام الخضــيرى : بســم اللــه الــرحمن الــرحيم.. قــال اللــه تعــالى " ادْعُ إِلَى سَــبِيلِ رَبِّــكَ بِالْحِكْمَــةِ وَالْمَوْعِظَــةِ الْحَسَــنَةِ وَجَــادِلْهُمْ بِــالَّتِي هِــيَ اًحْسَــنُ" الحكمــة يــا أبنــائى هــى سر النجــاح فى الــدعوة أو الدعايــة، مــش حكــيم العَــالِم الــلى يقــرا عــلى الصــنايعيه والفلاحــين دروس فى النحــو والصرــف أو دروس فى عقــود البيــع والشرــاء والــزواج والطــلاق، فى حــين انهــم محتــاجون لتصــحيح الفــرائض الضرــورية مثــل الصــلاة والصــوم والزكــاة، ومــش حكــيم الــلى يواجــه النــاس بــالعيوب الــلى فــيهم ويقــول للحرامــى يــا حرامــى وللســكير يــا ســكير، دا فيــه حــرج للــواعظ والموعــوظ. ربنــا ســبحانه وتعــالى هــو الحكــيم الخبــير عنــدما أراد أن يعــظ العــرب الجاهليــة وكــانوا عُبــاد أصــنام ومشرــكين وقتــالين قُــتلى وســكيرى ولاعبــين قمــار، وجــه الكــلام عــز وجــل للأمــم الماضــية الــلى هــما فــرعــون وعــاد وثمــود وأصــحاب الأيكــة ؛ فالجاهــل يحســب الــوعظ لفرعــون وهامــان وقــارون، والــذكى يعــرف إن الكــلام لــيكى يــا جــاره، يعنــى لــيكى يــا بنــى أميــه ويا بنى هاشم ويا شيبان ويا غطفان.

بيــبرس : يــا ســيدى أكــثر النــاس بيتجاهــل هــذه الحقــائق ويقولــوا أن الزجــر الــلى فى القرآن موجه للأمم الماضيه، أما أمة محمد فمغفور لها مهما فعلت.

الإمــام الخضــيرى: كــذابين.. دول يــا بيــبرس تعــاملهم بــالفقره الثانيــه مــن الآيــه نفســها وهــى قولــه عــز وجــل " وجــادلهم بــالتى هــى أحســن ".. التــى هــى أحســن فى أول الأمــر يكــون الــوعظ باللســان مــره واتنــين، فــإن لم ينفــع الــوعظ باللســان فتكــون التــى هــى أحســن عبــاره عــن الزجــر والضرــب، فــإن لم ينفــع الزجــر والضرب فيكون السجن أو النفى.. انتهى الدرس يا إخوان.

وبعـد انتهـاء الـدرس توجـه بيـبرس إلى القلعـة ولسـان حالـه يقـول صـلوا عـلى طـه الرسول:

أصلى على المختـار اللى تـرك لنـا	شـريعه فيهـا للهـدى ينبـوع
تروى اللى ساير فى قفار الضـلاله	حتى يبات راوي الفـؤاد قنـوع
يا سعد من ذو العرش للحق سيره	أمل الشيطان منه يبات مقطوع
واللى يجافى الحق يمشى فى ضلمه	ولـو تنـور له ألـوف شمـوع

عزيمة الرجال

فى حـين كـان السـلطان بيـبرس بـبلاد الشـام، أرسـل إليـه البوهيمونـد ملـك أنطاكيـة يطلـب عقـد هدنـه معـه، وذلـك بعـد أن رأى أن بيـبرس يمسـح جحافـل التـتر عـن آخرهـا، ولم يبـق إلا طـرد الإفـرنج الـذين يحتلـون سـواحل الشـام. وعنـدما عـاد بيـبرس إلى مصرـ جـاءت الأخبـار البريديـة تفيـد أن البوهيمونـد أغـار عـلى مدينـة حـماه واحتلهـا وقتـل مـن أهلهـا مـا قتـل ونهـب مـن أموالهـا مـا نهـب، وأصبح واقع الحال يقول.. صلوا على طه الرسول:

فى غيبة الأبطـال تبـان التعـالب	تلعب بأنيـابها ويظهر جبانهـا
كان الفتى البوهيموند كالكلب خانس	أنطـاكيه تخفيه فى ظـل حيطانها
وامـا رجـع بيبرس أرض الكنـانـه	حسب اللعين دنياه رجع له أمانها
اختار حماه وحماه عروسه صُغيره	زينـة نظايـرها وزينة زمانهـا
حكم الزمان تاخد نصيبها من الأذى	وحـان مع الأيام نهـا ر امتحانها
هجـم عليها هجـوم غـادر مخـاتل	هـدم معاقلها وضعضع كيـانهـا

قسم الرجال فريقين للسرقه فرقه　　وفرقه تشعل فى المدينه نيرانها
وضع الصليب بوهيموند فوق المنابر　　وشال محاريبها وأخرس أدانها
وباتت النواعير تنوح وتنتحب　　على اللى بعد العز شافت هوانها
حسره على ما أصاب أهل المدينه　　البايته فى الأسواق تتباع حسانها

وعل الفور عقد بيبرس مجلس حرب حضره أركان حكمه مثل الأمير سيف الدين قلاوون والأمير سنجر الحلبى وقائد الأسطول وكثير من الأمراء والوزراء، وتم وضع خطة لاستعادة مدينة حماه من الإفرنج، ثم توجه بكلامه للأمير سيف الدين قلاوون وأنشأ يقول.. صلوا على طه الرسول:

قلاوون يا سيف الدين شد ركايبك　　واطلع لنا بصفوف وراها صفوف
وانزل على الغادرين فى كل منزل　　وبكل قسوه فى جموعهم زوف
حلف لنا البوهيموند أيمان مغلظه　　انه مع الإسلام حليف وعطوف
إذا رأيت التاج على راس إفرنجى　　فأعلم بأن التاج على حلوف
غدر بنا الملعون وأرسل جيوشه　　على حماه أم السواقى ألوف
ابعد يا سيف الدين عن كل مرحمه　　ابعد عن المعروف إلى المتلوف
ولا يغركشى صوات الأرامل　　ولا نفس ملهوفه على ملهوف
والأسرى خليهم يعدوا قبورهم　　ولا تكن بهم رحيم ورءوف
أنطاكيه فيها المسلمات الأسارى　　لكل ناظر جسمهم مكشوف

بعدها دار الحديث بين بيبرس وقلاوون كالآتى:

بيبرس: بعد خروجك يا قلاوون إلى حماه هاخرج أنا إلى أنطاكيه بالذات، وعلى فكره أنا فكرت أطهر البلاد اللى بينا وبين أنطاكيه من الإفرنج، زى سلخط وعجلون والناصره.

قــلاوون :تطهــير الــبلاد دى مــن الإفــرنج يحتــاج لوقــت طويــل، ثــم إنهــا ملهــاش قيمــه كبــيره أو أهميــه حربيــه.بيــبرس :شــوف مــا دمــت هتحــارب مــاتخليش حــد ورا ضــهرك، يعنــى أنــا أفــرح بــالهجوم عــلى أنطاكيــة وأتــرك الفــراغ للحشــرات دى تقلــق النــاس ؟.. انــت تــروح تتــولى أمــر حــماه ســواء بالحصــار أو النــزال وأنــا هنــا باشطب على دول.

قلاوون :يا ترى سلخط وعجلون والناصرة يخدوا منكم وقت كتير ؟



بيــبرس :الحقيقــه إن ســلخط بهــا قلعــه ضــخمه ومنيعــه وتتعــب الــلى يســتولى عليهــا، وانــا غــاوى قــلاع.. أحــب القلعــه زى عنــتر مــا بيحــب عبلــه، ولا أرتــاح إلا لمــا تبات فى حضنى، نسأل الله التوفيق والنصر على أعدائنا.

ســار الأمــير ســيف الــدين قــلاوون بــالجيش نحــو مدينــة حــماه، وكلــما ســار مســافة ميــل انضــم إليــه مجاهــدون متطوعــون فى ســبيل اللــه، وكــان قــلاوون فارســا لا يشق له غبار، ويسمونه إذا نزل الميدان بالغضنفر الجبار،

وكــان يشــعر بــالغيظ لأن " فيكتــور" أخــو البوهيمونــد يعتــبر " لقمــه هايفــه" لا تكفيــه وكــان يريــد مــا هــو أعظــم منــه. ولمــا شــارف قــلاوون عــلى مدينــة حــماه أفــاض



وترجب وغن وترنم وأنشأ يقول.. صلوا على طه الرسول:

ألا يا حمــاه أنا أول ما أحكــى أبــدى القــول أبعت لك ســلامى

ويا فيكتور جعلوك من نصيبى وفى الميدان ما انتاش من مقامى

سنين وايام وانا بالحرب باحلم ونصل السيف ما فارق حــزامى

كتير أبطال مصارعتهــم تشرف بقابلهــم ولكــن فــى منــامــى

مُنــايا كــان أقــابل وجــه فــارس فى يوم الحرب لا وجه الحرامى

هيسألنى حصانى عن وجودك ورايــا جيت أو جيت مــن أمامــى

أيــا فيكتــور أستخــسر قصيــدى بأمثـــالك واستخــسر كــلامـــى

يا دون لافرنج ما كنتم مرادى فى دى الأيـــام ولا كنتــم مرامى

وجودكم طال فى الشام الشريفه وخيراتها لكــم فــوق كل شامــى

بــإذن الله ضــاربكـــم وبالـــغ بعــون اللــه قصدى واعتزامى

هــذا مــا كــان مــن أمــر قــلاوون أمــا بيــبرس فقــد وصــلت جيوشــه أخــيرا إلى أنطاكيــة فأحاطــت بهــا مــن كــل جانــب، ولأن أنطاكيــة مدينــة كبــيرة وقويــة التحصــين، اختــار بيــبرس أن يكتــب إلى الصــليبيين فيهــا يــدعوهم وينــذرهم بــالزحف علــيهم، وفاوضــهم فى ذلــك مــدة ثلاثــة أيــام وهــم لا يجيبــون، ولــذلك أخــذ فى شــن هجــوم عــام عــلى المدينــة، حتــى نجــح رجالــه فى اقتحامهــا وعندئــذ فــرت الحاميــة الصــليبية وعــددها ثمانيــة آلاف إلى القلعــة وأرســلوا يطلبــون الأمــان فــأمنهم؛ وهكذا تم الاستيلاء على أنطاكية فى أواخر مايو 1268م.

من أم واحدة وأب واحد


صورة تعبيرية

كــان الظــاهر بيــبرس يســمى "أبــو الفتوحــات"؛ لأنــه فــتح معظــم الــبلاد التــى احتلهــا الإفــرنج عــلى ســواحل الشــام وأعادهــا إلى حظــيرة الإســلام، وفى أيامــه كــثرت الغنــائم فى أيــدى المجاهــدين بعــد أن يأخــذ خُمســها إلى بيــت المــال. وبعــد أن انتصرــ الظــاهر بيــبرس عــلى التتــار فى معركــة البــيرة والتــى يقــول عنهــا مؤرخــو الإفــرنج إنهــا أعظــم مــن معركــة عــين جــالوت. دخلــت الفتيــات التتاريــات الأسيرات بيوت المسلمين

بعــد أن هــداهم اللــه إلى الإســلام بعــد أن كــن وثنيــات يعبــدن الأصــنام ويســجدن للنــيران، ولقــد أكــرمتهن العــائلات المســلمة ولقــين المعاملــة الحســنة التــى أوصى بها الرسول الكريم، وفى هذا المقام يقول الشاعر:

من أم واحــده الناس ومن أب واحد	حكمة مـدبــر خــافى الألطــاف
وتلــونت أوصــاف وجـوه الـبرايــا	وللتعــــارف تلــزم الأوصـــــاف
لو كان جميع الناس من صنف واحد	ما كــان إليهم يهتــدى عــــراف
إخــوان وكانوا فى سعــاده يعيشــوا	لــو يحكمـوا بالعـدل والإنصـاف
إخــــوان ويا أسفاه منهــم وفيهــم	واحــد لأرزاق الجميــع سفــــاف
إخــــوان ويا أسفاه منهــم وفيهــم	واحــد لعـورات الجميع كشــاف
لو تستقيم النــاس وكان كل منهـــم	يرضى بحظه فى عفــاف وكفاف
ما كانت الإخــوه تحــارب خواتهــا	ولا كان ما بين المنصفين خلاف
ولا علـــى ظهــر البسيطـه رأينـــا	بنــى البشــر متكتــله أحـــلاف

الأميرة سرين

لمــا الشــيطان غــر ســنجر الحلبــى وجعــل نفســه ســلطانا عــلى مدينــة دمشــق فى بدايــة عهــد الظــاهر بيــبرس، كــان يعــرف أن هــذا العمــل لا يــرضى الــرب ولايــرضى العبــد، وأن عمــره قصــير فى هــذه الســلطنة؛ فكــان يخطــف مــن النــاس مــا يمكــن خطفه من الأموال والجواهر ثم يرسلها

إلى خاله فى مدينة بعلبك، وكان يحطم أبـواب القصـور ويدخلها

بــالقوة ويــروع أهلهــا حتــى يــدفعوا لــه مــا يريــد، وجــاء الــدور عــلى قصرــ الأمــيرة سرين بنت السلطان شرف الدين، وهى التى تحدثت بجمالها الركبان،

وانتشرـــت ســـيرتها الطيبـــة فى كـــل مكـــان، وسريـــن هـــذه التـــى كانـــت تأمـــل أن يجمــع اللــه شــملها بمحمــود بيــبرس عنــدما كــان هــو فى ســن الثامنــة عشرــ وهــى فى ســن الثانيــة عشرــ ولكــن الأقــدار حكمهــا قهــار وســبحان مقلــب الليــل والنهــار، وعندما دخل سنجر قصر الأميرة سرين دار بينهما الحديث التالى:

سنجر: انتى بنت الراجل الحرامى اللى كان اسمه السلطان شرف الدين ؟

سرين: أبى فى عالم الأموات.. من فضلك لا تذكره إلا بالخير.

ســنجر: طيــب انتــى بنــت الراجــل الــلى جمــع أمــوال النــاس وأخفاهــا تحــت بــلاط القصر ؟

سرين: اتفضل ارفع البلاط وخد الأموال.

ســنجر:لا.. أنــا مســتأمنك انتــى.. عــاوزك تســلمينى بنفســك الأمــوال ســواء كانــت تحت البلاطه أو تحت المخده.

سرين: هل أنت وريث السلطان شرف الدين؟

سنجر: أنا وريث كل سلطان لأن أنا نفسى سلطان.

سريــن: أنــت مملــوك هربــان خــارج عــلى بيــبرس وخــارج عــلى المســلمين خــاين، فى الوقـــت الـــلى بيـــبرس بـــيلم شـــمل المســـلمين المتفـــرق، انـــت عـــمال بتبعـــزق فى هالشعب وبكره تبيعنا لحكام عكا أو حاكم قبرص.

سنجر: إيش دخلك فى السياسة.. وإيش عرفك بيبرس؟

فــما كــان مــن الأمــيرة سريــن إلا أنهــا أوقفــت هــذا الجبــان عنــد حــده ولطمتــه عــلى خده وأنشأت تقول.. صلوا على طه الرسول:



إن كنت تجهلنى يا سنجر يا حلبى	**أنا ابنة السلطان شرف الدين**
إذا الزمان من مُلك أبويا حرمنى	**يكفانى ميراث الشرف والدين**
يكفانى قول الناس فى كل منزل	**سرين ومافى المُلك غير سرين**
أنا شفت فرسان البلاد فى المواكب	**وفى المعارك وانت تطلع مين**
لا انت نظير قلاون فى زينة ركوبته	**ولا انت من خدام فخر الدين**
ومن عجيب أمرك وقلة فطانتك	**تجلس مكان بيبرس يا مسكين**
لو شافك البواب تجلس مكانه	**حالا يا سنجر يضربك سكين**
بيبرس لما كان فى عز طفولته	**سرح بتاج أرناط على الدكاكين**
بيبرس يا صعلوك فى يوم وليله	**فرق ميراث أمه على المساكين**
وانت يا سلطان فى أول بدايتك	**شلت الطناجر من فوق الكوانين**
ومن إيد الفران سرقوا جنودك	**خبز الغلابه وهو لسه عجين**

أرناط : كان أميرأنطكية الطناجر: جمع قدر من النحاس

اتخــذ ســـنجر لنفســـه جناحًـــا بقصرـــ الأمـــيرة سريـــن، ورتـــب الطبـــاخين والطباخـــات والفراشـــين والفراشـــات، أمـــا الأمـــيرة سريـــن فقـــد تركهـــا فى حجـــرة محروســـة بـــالجنود وبجانبهـــا حجـــرة أخـــرى بهـــا المـــاذون والشـــهود، وهـــى "متحزمـــة" بخنجـــرين عـــلى وســـطها ومصـــممة عـــلى قتـــل نفســـها إذا المـــأذون كتـــب عقـــدها فى حضـــورها أو غيابهـــا. اســـتمر الحـــال عـــلى هـــذا الوضـــع لمـــدة شـــهرين، وأحســـت سريـــن أن بؤســـها طـــال وســـجنها مـــا لـــه زوال؛ فأنشـــأت تقـــول عـــلى مســـمع مـــن سنجر وال

يا زمـــان طـــالت همومى	واتبـدل لـيـلى بيـومـى
فـين أهلـى فـين أمـى	ينظـروا للـى جـرالـى
أنـا سـرين الـوحيـده	كنت فى قصـرى سعيـده
أحتمـل أهـوال شـديـده	بعضـها فـوق احتمـالـى
طال على الأهـوال صـبرى	والـهموم فـى جسـمى تجرى
أشتهى أدخـل فى قـبرى	يقـولـوا لى القـبر غـالى
يا مـا قـالـوا لـى جمـالك	ينـقـذك مـن المهـالك
[illegible] صابنى	والسبب كله جمالى

بعد ذلك دخل سنجر إلى سرين ودار الحوار الآتى:

سنجر: بيقولوا عليكي إن المرحوم والدك رباكى تربيه عاليه

سرين: الحمد لله.

ســنجر: بــس أنــا شــايف العكــس.. شــايفك غبيــه وعنيــده، دمشــق كلهــا فى إيــدى والــلى فيهــا عبيــدى، وانتــى لوحــدك الــلى بتقــاومينى مــع انــك ملــك يمينــى وفى بيتــى أقــدر أعتــبرك أســيرة وأقــدر أبيعــك، ولكــن عملــت لــيكى مقــام وبــاعرض عليكى الزواج زى الأحرار وباقدم لكمهر يليق بمقامك.

سريـن: هههه.. إيش حالك تعمل يا سلطان وانت ما قرأت كتب الشريعة.. منين أكون ملك يمينك وانا مسلمه حره؟.. هل أبي كافر وانت حاربته؟.. هل اشتريتنى من سوق الأسارى؟.. والمهر اللى بدك تدفعلى إياه منين جبته؟ أليس من أموال أبي اللى أنت نهبتها؟.

عند هذا الحد سُمعت أصوات عالية خارج القصر، فأطل سنجر من الشرفة فوجد جيش بيبرس بقيادة الأمير علاء الدين البندقدار قد دخل إلى القصر للقبض عليه وإرساله مكبلا بالحديد إلى القاهرة.

بعد القبض على سنجر أرسل الأمير علاء الدين البندقدار فى الحال إلى صاحب مدينة بعلبك ليعيد إلى الأميرة سرين أموالها، وبعد أن شكرته طلبت منه أن يرسل هذا الكلام مع الحمام إلى السلطان بيبرس:

أنا بعد باسم الله أصلى على النبى	وابدأ بها فى مستهل الرسايل
من الفتاة سرين اللى دعوها	أم العيون فيروز وأم الجدايل
إلى الفتى بيبرس اللى عرفته	مهذب الأخلاق جميل الفعايل
أهدى إليك سلامين من الفرح والأ	سى من سن متبسم ومن دمع سايل
أنا فى جمايلك فى بعادك وقربك	احترت أحسب كام وكام الجمايل
سنجر كسر قلبى وميل عمادى	أما علاء الدين عدل كل مايل
أصبح رجايا فى حياتى السلامه	لدنيا ما فيها لعاقل طايل
فيها الأسى دايم وأما نعيمها	مهما يطول العمر فانى وزايل

******

للظلم نهاية

تولى بدر الدين لؤلؤ نيابة مدينة حلب فى عهد السلطان قطز، واستمر فى موقعه فى بداية عهد السلطان بيبرس، وكان هذا الرجل سئ الخلق يسلب الناس أموالهم بالباطل وكذلك يخطف بنات حلب بحجة خطبتهن ويأخذ الجميلات منهن لنفسه، ويوزع الباقيات على عساكره، وكان مع لؤلؤ مجموعة من الأمراء الصالحين الذين لا تعجبهم هذه الأفعال فقرروا مواجهته بالحقيقة، فدخل عليه مجموعة من الأمراء وأعيان المدينة بقيادة الأمير حسام الدين العزيزى، وطلبوا منه رد البنات لأهلهن وكذلك رد كل دينار أخذه ظلما من أهل المدينة، لكنه عنفهم ورفض طلبهم، فما كان منهم إلا أنهم قبضوا عليه وكبلوه بالحديد ووضعوه فى السجن، بعدها قرر الأمراء مع أعيان المدينة تعيين الأمير حسام الدين العزيزى أميرا على حلب الذى أرسل رسالة إلى السلطان بيبرس يقول فيها:

أصلِّى عالنبى العربى محمد ... نبى يرتجى يوم الشفاعه

من الشهباء حلب جايه رساله ... إلى بيبرس ختاماها الجماعه

من بنى الموصلى لؤلؤ رأينا ... فعايل تدل غايه فى البشاعه

يظن الأرض ملكه والبرايا ... عبيد فى السوق يبيعهم بضاعه

بنات الناس يخطبهم عذارى ... ويرغمهم على فعل الخلاعه

وفى نهب الدراهم له لطاعه ... معاذ الله تساويها النطاعه

ومن يوم ما قعد عالعرش لؤلؤ ... بنى الشهباء عايشه فى مجاعه

طردنا الندل من أرض المدينه ... وقابلنا الفظاعه بالفظاعه

واحنا فى انتظار شورتك علينا ... أيا بيبرس واحنا أهل طاعه

فلما وصلت رسالة حسام الدين العزيزى إلى بيبرس سجد لله شكرا،

وقال هذا آخر مخلفات السلطان قطز رحمه الله، ثم استشار وزيره فيما جرى وأرسل رسالة إلى حسام الدين العزيزى يقول فيها:

حسام الدين جانى يا عزيزى رساله بلغت غاية رجايا

جايه أشوف بلاد الله عليها فى شئون الحكم عادل فى الرعايا

وحكم العدل أنفع للرعيه وأبهى من العطايا والهدايا

حسام الدين تسلم لى يمينك وترعاها من الله العنايه

محيت فاجر نزل من نسل فاجر وناقص معرفه ناقص ربايه

ومثلك يا حسام الدين يصلح لحكم الناس يا حلو السجايا

بهجه تجلب النعمه إليهم وهِمّه مثلها ترد البلايا

على حاجتين أوصيك يا عزيزى فلوس الناس وأعراض الولايا

فلا مسكين ينتظر المتاعب ولا مظلوم نسمع له شكايه

وحسبى يا حسام الدين وحسبك من الله المناعه والوقايه

***

سوء الظن

بعد تولى حسام الدين العزيزى أمر حلب، كان التتر فى طريقهم إليها، وكان اسم التتر فى ذلك الوقت مساويا لاسم الجن والشياطين أو العقارب والثعابين، أنزلوا الرعب فى قلوب المسلمين، وكان الرعب يسبقهم إلى المدينة التى يقصدونها، فيتركها أهلها وينجون بأنفسهم كأنما ينجون بأنفسهم من السيل والنار والزلزال، ولكن الله أرحم الراحمين وأكرم من أن يترك عباده المؤمنين دون أن يرسل من يلم شعفهم، وبيبرس وأقرانه من هؤلاء.

طلب حسام الدين العزيزى من أهل حلب أن يهاجروا خارج المدينة، ثم ذهب إلى حماه ليطلب من ملكها المنصور تكتل كل من حلب وحماه وحمص لمواجهة خطر التتر، وأقترح عليه فى البداية أن يأمر أهل حماه بالهجرة إلى حمص، ومنها يبدأ تضافر الجهود لصد الهجمة التترية. ولكن الملك المنصور أساء فهم قصد العزيزى وظن أنه يطلب منه إخلاء حماه ليسهل على العزيزى ضمها إليه لكى يصبح ملكا على كل من حلب وحماه، وهنا تدخلت نعمة بنت المنصور لتنقذ الموقف وتوضح الأمر وأنشأت تقول:

أنا أهدى سلامى للنبى التهامى	نبينا المكرم بطل الغمامه
نبينا اللى جاهد وهو فرد واحد	إلى أن وصلنا لبر السلامه
وانتم يا خلايق يا بتوع الوصايف	كل منكو خايف كخوف النعامه
جيتنا يا عزيزى بالقول الوجيزى	لو ساءت حالتنا ما عليك ملامه
وانت يا مليكنا لا تسبب هلاكنا	سوء ظنك وعِندك ما هو م الشهامه
يا أبى تقدم من قبل ما تندم	واللى يموت بحسره ما تفيد الندامه
التتر بليه ناس جهنميه	ناس ما يعرفوشى للبشر كرامه

وفى تلك الأثناء حضر الملك الأشرف صاحب حمص وهو من سلالة صلاح الدين الأيوبى ودار الحوار التالى:

الأشرف: اتضح يا حسام الدين أنك على صواب فقد وصلتنا أنباء باجتياح التتر لمدينة حلب، وكلنا كنا مخطئين فى تقدير قوة التتر.

المنصور: هذا صحيح.. كنت أظن أنه بعد موقعة بغداد أن التتر خسروا تسعين بالمائة من جيوشهم وأنهم لا يستطيعون حشد أكثر من خمسة آلاف جندى.

العزيـــزى : موقعـــة بغـــداد مـــا كـــانتش معركـــة حتـــى يقـــال أن التـــتر خسرـــوا فيهـــا عـــدد كـــذا مـــن الجنـــود، موقعـــة بغـــداد كانـــت غـــاره خاطفـــة عـــلى أهـــل مدينـــة آمنـــة، فـــاذا كـــان ضـــاع مائـــة ألـــف أو ألـــف ألـــف كـــائن حـــى هيكونـــوا مـــن أهـــل بغـــداد وحدهم.

المنصور : ومعركة عين جالوت.. كام ألف تترى قتل فيها ؟

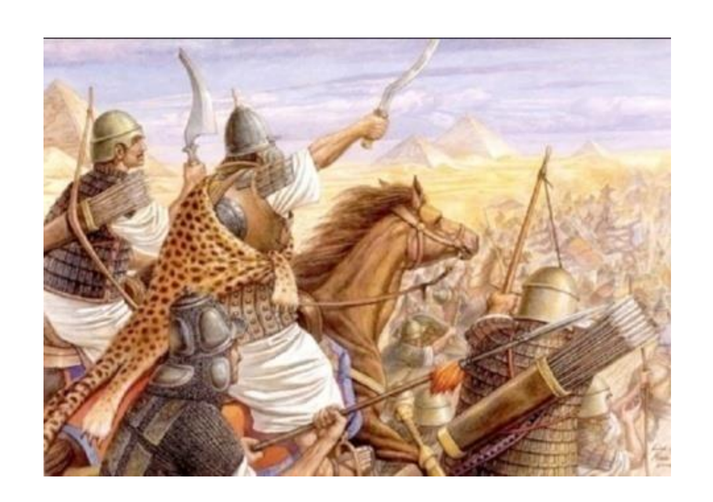
العزيـــزى: كتـــير.. فـــوق مـــا نعتقـــد، انكسرـــ جنـــود التـــتر عـــلى يـــد بيـــبرس ولكـــن أمـــة التتر كما هى، والحى أكبر من اللى راح بأضعاف.

الأشرف: هـــذا جـــدال وسفســـطه كلاميـــه يـــا اخـــوانى لا تفيـــد فى مجـــالس الحـــروب، إحنا اعترفنا أننا فى خطر، وهالدقيقه إحنا مستعدين للحرب.

عنـــد هـــذا الحـــد بـــادرت نعمـــة بنـــت الملـــك المنصـــور بتجميـــع النســـوة لينقـــرن عـــلى الدفوف مع هذه الكلمات:

يا سخـط الـله على التتر	عُبـاد الشمس والقمـر
طُعم جهنم والله أقسم	يطعـم هالناس والحجـر
أمـة محمد فى كـربها	موعـوده بنصـر ربها
فى دنيـا يفنى عـدوها	ويروح مخلد إلى صقـر
نـادت بغـداد يا عـرب	تارى من قاتـلى ذهـب
ابكوا بعدى على حلـب	الرايـح دمهـا هـدر
يا حـزب اللـه قربـوا	من كل مكان واضـربوا
حـزب الأوثان والشيطان	أعـداء اللـه والبشـر

يا مصاحب الإفرنج !



جـــاء فى ســـيرة الظـــاهر بيـــبرس أن نجـــم الـــدين الشـــعرانى زعـــيم الطائفـــة الإســـماعيلية، كـــان يـــدعى الانتســـاب إلى الإمـــام جعفـــر الصـــادق ابـــن الإمـــام محمـــد البـــاقر ابـــن الإمـــام محمـــد ابـــن الحنفيـــة ابـــن الإمـــام عـــلى ابـــن أبي طالـــب، وبنـــاء عـــلى هـــذا الادعـــاء يـــرى نفســـه أحـــق النـــاس بحكـــم بـــلاد المســـلمين كلهـــا ولهـــذا كـــان يـــدبر المـــؤامرات الخبيثـــة ويســـتخدم الجهـــلاء ويصـــاحب الإفـــرنج للقضـــاء عـــلى حكـــام المســـلمين واحـــدا تلـــو الآخـــر وعـــلى الخصـــوص محمـــود بيـــبرس، وللشـــعرانى أحـــوال شرحها يطول ويلخصها الشاعر ويقول:

يا نجـم الدين يا شعرانى　　　يا مسلـم وانت رومانى

تعادى المسلمين وتقـول　　　شـريف الأصل عدنانى

فى جيشك يشرب الجندى　　　شراب القنب الهنـــدى

وتجعلها يا بـوهميونـدى　　　علينا حـرب سلطـــانى

بمـالك يا جبـــان صـولـه　　　ولا لك يا جهــول دوله

ويـــوم الحرب يستولى　　　عليك راعى غنم ضانى

عن الإســـلام تبات مارق　　　وتحسب روحك الحاذق

إمامنا جعفـر الصـــادق　　　بريء منـك يا شـرانى

يا شـــرانى وزاد شـــرك　　　واسمك عــزّنا وعَـزّك

وقبـل ما ضرّنا ضـــرك　　　يا عايش غــير إنسانى

القنب الهندى : نوع من القنب ينتج منه المخدر الضار

كـان نجـم الـدين الشـعرانى يتـودد إلى الإفـرنج ويرسـل لهـم الهـدايا، وفى أحـد الأيـام أرسـل قافلـة محملـة بالهـدايا إلى الملـك البوهيمونـد ملـك أنطاكيـة ولكـن هـذه القافلـة وقعـت فى أيـدى رجـال بيـبرس بقيـادة العيـداروس التهـامى الـذى سأل "شميل" قائد القافلة عما يحمله فأنشأ شميل يقول:

أحمل فى قلبى هموم أحتـار أعـدها	وفـوق جِمـالى مثلهـا أحمـال
ما بين نجم الدين الطـاهر النسب	وبين الملك بوهيموند أنا المِرسال
أحمـل هـدايا المسلمين للصليبى	كـأنهـا جـزيه لبيت المـال
أحمل معايا ألوف شكاير مـلانه	لأهل أنطاكيه حبـوب وغِـلال
من بعدها الفقرا فى أرض الجزيره	على رغيف العيش ترى الأهـوال
واحمل معايا من الحريـر الملون	حـرير يـزود عالجميله جمـال
واحمل علب ألوفات فواكه مسكـره	للناس ما يخطـر طعمها على بال
ويا عيداروس أحمل قناطير مقنطره	من مسك أصـفر بالدينار مثقـال
واحمل من البحرين عقود من لآلئ	وأظن فى البحرين ما عـاد لاآل
يا عيداروس يا خير من أستشيره	قول لى حرام هالفعل ولا حلال
لولا يقولوا النـاس خـان الأمـانه	ولا يأمنـوا بعـدى إلى حمـال
واكون سبب فى ضنك عيشة قرايـ	بى وانا اللى فيهم ليا عم وخال
لا ابيع حمول الكل وأقبض فلوسها	واسكن بـلادًا تركب الأفيـال

وبعـد ذلـك سـارت القافلـة إلى دمشـق حيـث يوجـد بيـبرس، وكانـت مـع قائـد القافلـة رسـالة مـن نجـم الـدين الشـعرانى إلى البوهيموند يقـول فيها:

"إلى أخينـا وحبيبنـا وملاذنـا ونصـيرنا الملـك المبجـل والقيصر المفخـم.. مصـاحبته غُـنم ومعاداتـه غُـرم.. صـهرنا الكـريم الملـك البوهيموند السـادس ملـك أنطاكيـة، أطـال اللـه فى عمـره وحـرس ملكـه ونصرـه عـلى أعدائـه. أمـا عـن رغبـتكم فى مصـاهرتنا وأن تكـون شـقيقتكم الأمـيرة مجـدولين ضـمن زوجاتنـا فهـذا مـما يسر قلبـى ويوافـق رغبتنـا، وبرهانـا عـلى قبولنـا هـذه الزيجـة أرسـلنا إلـيكم هـذه الهـدايا الصـغيرة، جواهرهـا للعـروس ولآلئهـا لأهـل أنطاكيـة تفرقونهـا كـما تـرون، وإذا أرسـلتم الأمـيرة مجـدولين فأرسـلوها مـع أحـد الأقربـاء والحـراس الأقويـاء، وقبـل قيامهـا أرسـلوا إلينـا بـالحمام الزاجـل لنفـرش لهـا الطريـق مـن عنـدكم لعندنا بالطنافس كما يليق بمقام الملوك".

بعد ذلك دار الحوار التالى بين بيبرس وشميل :

بيـبرس: أنـا عـايزك تواصـل رحلتـك عـادى إلى البوهميونـد وتسـلمه الرسـاله وكأننـا لم نطلـع عليهـا. وياريـت تقـول لى عـلى فكـره زينـه تقنـع البوهميونـد عـن سـبب فـض خـتم خطـاب الشـعرانى إليـه وأيضـا ناخـد بيهـا الغـلال الموجـوده بالقافله.

شـميل : أقـول للبوهميونـد إن العنـزه أكلـت الخطـاب وخلصـناه مـن حنكهـا، وبعـدها طلعـت علينـا فى الطريـق لصـوص أخـدوا كـل شيء.. الغـلال والثيـاب والجواهر.

بيـبرس: بـلاش موضـوع الجواهر،قـول لـه الجـواهر الحراميـه غفلـوا عنهـا، خليهـا يا شميل للأميره مجدولين، إحنا ناس عندنا ذوق برضـه

شميل : إن جيت للحق هى تستاهل جواهر البرين والبحرين.

بيبرس: أنت شفت الأميره مجدولين يا شميل؟

شميل: فى كل سفره بتسلم علىّ وتمزح معى وتسألنى وين الكحل وين الخضاب؟

بيبرس: هى حلوه يا شميل؟

شميل : اسمع يا سلطان ما أقول :

عن مجدولين الأنطاكيه فى السفر	قوافل الركبان توصف حسنها
شعرا البوادى قالوا أشعار عنها	فى عبل عنتر عبس ما قال مثلها
وعن سماع قالوا كلامهم فاستمع	قولى أنا يا بيبرس أنا اللى شفتها
قوامها يا محمود كالسيف تسحبه	فى ساحة الأعداء ترعب قلبها
وشعرها الوهاج ساطع من لهب	أحمر على الخدين يقدح جمرها
والخصر بالزنار معقود يا بطل	عقده ما كل الناس تدرى حلها
وعيونها الدعجاء لما تأمرك	بنظره يا سلطان تسمع أمرها

واصلت قافلة شميل سيرها إلى أنطاكية، وهناك حكى شميل للبوهميوند ما سبق أن اتفق عليه مع بيبرس من أن القافلة تعرضت للسرقة من اللصوص فى الطريق، وسلمه الجواهر واللآلئ فقط.
وكان البوهميوند قد دبر خطة شيطانية لخداع الشعرانى، وهى أن يرسل له عروسا ليست أخته، بل هى إحدى الراقصات والمغنيات بحانات أنطاكية اسمها مجدولين، وأرسلها فى قافلة مع شميل الجمال تضم شقيقه البرنس فيكتور ومجموعة من الوصيفات والحرس والحمالين.

الخضاب : ما يلون به الشعر من حناء وغيره. الدعجاء : السوداء.

الزنار : حزام يشد على الوسط.

وعنــدما وصــلت القافلــة إلى الشــعرانى، ورأت مجــدولين وجــه الشــعرانى أصــابها الرعــب منــه، وأفضــت إليــه بسر خطــة البوهميونــد وأنهــا ليســت أختــه، وطلبــت منــه أن يتركهــا ترجــع مــع شــميل الجــمال بعيــدا عــن فيكتورفوافــق الشــعرانى عــلى ذلــك بعــد أن علــم أنهــا ضــحية ألاعيــب البوهميونــد، ثــم طلــب مــن الكاتــب أن يكتــب رســالة إلى البوهميونــد يقــول فيهــا يــا أخــو الرقاصــه كشــفنا لعبتــك وسنجازيك على فعلتك وبعدها أنشأ يقول:

احمل إلى البوهيموند منى رساله   فيكتــور يا صعلــوك يـا فيكتــور

وقـل له يا بوهميونـد أنتـم بنـانه   مـواشى عـايشه فى أراضى بــور

لمـا عليكـــم تــدور الــديــابــه   ما فى سبــاع غــيرنا ترد الجــور

واحنا صحاب الرأى يوم الوقايع   وفى المشوره إحنا صحاب الشور

ما كنت أنا أحسب تـلاعبنى لعبه   أنــا الأســـد فيهـا وانت التـــور

من صنف مجدولين عندى صبايا   من عـــام لعـــام يأتى عليها الدور

فلــو أردت اللعب فاعــلم بانـــك   نـازل معـايـا بــير بعيــد الغــور

ولو أردت خصام نجيلك جحـافــل   مـن المـدينـه تطــردك ع البــور



مما سبق نرى أن عداء نجم الدين الشعرانى لأهل السنة جعله يتقرب من الإفرنج للاستعانة بهم فى القضاء على المسلمين الذين لا يتبعون طائفته، وفى هذا يقول الشاعر:

أصلى على نور الوجود محمد … صاحب مقام عالى وفضل كبير

ضمن الكرامه والمعزه لأمته … مادام على القرآن خطاها يسير

أمر كتاب الله أمة محمد … ما يكون فى الكفار معاها مصير

ولا يستعين مسلم على حرب مسلم … بأمه محسوبه من الخنازير

يا مصاحب الإفرنج كفاك مهانه … إنك من الطرفين تعد أجير

يكفاك مهانه وذل لما ملوكهم … يعينوك انت ملك وأمير

إن عضدوك بسلاح فأنت أسيرهم … أو ساعدوك بالمال فأنت غفير

يا مصاحب الإفرنج تسلم بدينك … إذا تعيش جمّال تجر بعير

مسير الحى يتلاقى

كما سبق أن أشرنا عادت مجدولين من عند الشعرانى مع قافلة شميل الجمال، التى انتهت رحلتها فى دمشق حيث يوجد السلطان بيبرس، الذى استقبل شميل ومعه مجدولين بناءً على رغبتها. وبعد أن سمع بيبرس قصتها وعلم بما كان من دورها فى إحداث خلاف بين الشعرانى والبوهميوند بسبب فضحها لخطته فى تزويجها للشعرانى على أنها أخته، نادى بيبرس على الحاجة أم يعقوب كهرمانة القصر وطلب منها أن تضيف مجدولين وتعتنى بها.

لاحظت الحاجة أم يعقوب أن مجدولين تتميز بجسمها بعلامات ذكرتها بحوادث ماضية، وأشخاص كانت تعرفت عليهم وعصفت بهم حوادث الزمان وسيرتهم فى خبر كان وللشاعر هنا كلام:

أنا من صميم قلبى أصلى على النبى	صلاه فى قلبى من عبيرها رياض
محمد اللى من كلامه وحكمته	الناس بتنهل من معين فياض
بالرحمه أوصى للأسير اللى مالو	عن منزله وعشيرته مُعضاض
ما قريت عن الإفرنج فى الشام وأند	لس إلا ودمعى من عيونى فاض
حرقوا العباد بالنار واللى فاتوهم	عدو دينهم فى دماهم خاض
وأصبحت أنقاض بيوت الأصايل	يسكنها من جنس البشر أنقاض
والكارثه الكبرى اللى حلت عليهم	ما حل بالأنساب والأعراض
الأم تفضى عن حقيقة ولادها	وياما يستر الإغضاف والإغماض

وهاهى مجدولين وأم يعقوب يتسائلان ويتفاهمان:

أم يعقوب:أنا شايفه على كتفك اليمين خالين.

مجدولين: تمام.. واحد كبير وواحد صغير.

أم يعقوب: بتقدرى تشوفيهم ؟

مجدولين : نعم فى المرايه.

أم يعقوب: عجبى على هذا الزمان اللى بيدور بالناس مثل الفلك الدوار، فاكره قديش كان عمرك لما لصوص أنطاكيه خطفوكى؟

مجدولين : يمكن ثلاث سنوات.

أم يعقوب:فاكره اسم والدك إيش؟

مجدولين: لا أذكر اسم أبى لكن فاكره اسم أمى.

أم يعقوب: شو كان اسم أمك؟

مجدولين: أنيس.

معضاد : سكين الجزار لتكسير العظمالاغضاف : المقصود عدم الإفصاح

أم يعقــوب: اســم اللــه عــلى عيونــك يــا أم يعقــوب، الــلى أشــوفه مــره عمــرى مــا أنســاه.. انتــى يــا بنيتــى بنــت جــارتى عشــيرة عمــرى، والــدك كــان اســمه "نعــمان".. خلينــى أضــمك إلى صــدرى، يامــا رضــعتك لمــا أمــك كانــت تتركــك عنــدى، عيونــك هــى هــى.. وشــعرك هــو هــو المحنــى بحنــة ربــانى.. تعــرفى شــو كــان اســمك ؟..اســمك ثريــا ووالــدك كــان يــدللك وينــاديكى ريــا، وأمــك تنــاديكى يــا ريــرى.. اللــه يجــازى هالزمــان الــلى بيلعــب بالنــاس. قــومى معــى أخــبر الســلطان بيــبرس بهالخبر السعيد.

ولمــا اطلــع بيــبرس عــلى حقيقــة الفتــاة مجــدولين، أحضرــ لهــا الشــيخ ابــن دقيــق العيــد وعقــد لهــا مجلســا شرعيــا أعلنــت فيــه إســلامها، وخصــص لهــا بعــض النســاء الصالحات تعلمها فرائض الاسلام.

عاشت مجدولين أياما قليلة فى قصر بيبرس بدمشق وبهرتها الحياة

الإســـلامية الهادئـــة المشرـــقة، فتبـــدلت ملامحهـــا الشـــيطانية بـــأنوار ملائكيـــة، وأحبهــا كــل مــن فى القصرــ وطلبــوا مــن بيــبرس أن يبقيهــا معهــم. وفى أحــد الأيــام دخل بيبرس حديقة القصر فسمعها تترنم بهذا الكلام :

بيبرس إحنـــا حـابينــــه — دا مـلـك إحنـا مـالكينــــه
إذا كـان إحنـا شــارينـه — بالــروح نبقــى كاســـبينه
بكـره يـدخـل أنطـاكيـــه — يرمى البوهيموند فى داهيه
اللى إحنـا مش عاجبينـه — بكـــره نبقــى مـاسكينــه
بوهيمونـد والشــعرانى — عـاملين حـزب الشيطـانــى
الأول وللا التـــــــانى — إحنـا إن شـالله غـالبينـــه
الأرض العــربى بتاعنـا — إحنـــــا لوحـدينا تســعنا
اللعنــه فــوق اللعنـــه — عالنــــاس المحتلينــــه

عـــاد بيـــبرس إلى القـــاهرة وكانـــت مجـــدولين ضـــمن الحاشـــية، حيـــث طابـــت لهـــا الحيـــاة فى القصرـــ الســـلطانى، وانضـــمت إلى الفريـــق الـــذى يعمـــل فى تجهيـــز البريـــد وترجمـــة الرســـائل، وحمـــدت اللـــه أن وضـــع فى طريقهـــا ملكـــا مســـلما أنقـــذها مـــما كانت فيه ويوفر لها الحماية.



المغيبـون

جلـــس الظـــاهر بيـــبرس ذات يـــوم بدمشـــق مـــع وزيـــره زيـــن الـــدين لمناقشـــة كيفيـــة مواجهـــة الأخطـــار التـــى تواجـــه الأمـــة فى ذلـــك الوقـــت، والتـــى أضـــيف إليهـــا الخطـــر المتمثـــل فى الطائفـــة الإســـماعيلية بزعامـــة نجـــم الـــدين الشـــعرانى، الـــذى يقـــيم علاقـــات مـــع الصـــليبيين ويتـــآمر معهـــم عـــلى المســـلمين الســـنة، وقـــد علـــم بيـــبرس أن نجـــم الـــدين الشـــعرانى قـــد جنـــد شـــابًا مـــن طائفتـــه اســـمه "عطـــون" لقتلـــه بعـــد أن وعـــد هـــذا الشـــاب بأنـــه ســـيدخل الجنـــة إذا مـــا قتـــل بيـــبرس. وبالفعـــل حـــاول عطـــون قتـــل بيـــبرس بعـــد انتهـــاء الصـــلاة بالجـــامع الأمـــوى ولكنـــه لم يـــتمكن مـــن ذلك وتم القبض عليه ووضع بالسجن،

وأراد رئيس الشرطة أن يقدمه لقاضى دمشق ليحاكمه بتهمة الشروع فى قتل السلطان، ولكن بيبرس طلبه فى قصره ليحادثه ويتعرف منه على مقدار الدعوة الإسماعيلية فى نفوس الناس وأى طبقة من الناس استجابت لها؛ فأمر بيبرس بأن تحل قيود عطون ويدخل إليه معززا مكرما كأنه ضيف ثم دار بينهما الحديث كالتالى:

بيبرس : يا سيد عطون.. أنا عملتلك إيه عشان تقتلنى؟

عطون : أقتلك لأنك كافر.

بيبرس : مين قالك إنى كافر؟

عطون : الإمام نجم الدين الشعرانى

بيبرس: ماقالش ليه أنا كافر؟

عطون: قال لى إنك كافر لأنك قاصص لحيتك طول قراطين وحالقها من فوق الخدين.

بيبرس: طيب وطول ذقن الإمام نجم الدين الشعرانى قد إيه؟

عطون: طولها شبرين أى والله شبرين.

بيبرس: كام عمرك يا عطون ؟

عطون: أنا ما أعرف عمرى كام.. خمسة عشر عام ولا عشرة أعوام ولا ثلاثين عام.. خلونى أفتكر، لما هولاكو حرق بغداد كنت أقف قدام العنزه وانطحها راس براس، لا هى أطول منى ولا أنا أطول منها.

بيبرس: خلاص عرفنا يا عطون.. اللى يقدر يناطح العنزه يكون عمره ثمان سنوات أو تسع سنوات، وحريق بغداد مر عليه الآن عشر سنوات، معنى هذا يا عطون إن عمرك فى حدود ثمانية عشر أو تسعة عشر عامًا.

عطون: ما يهمنى أعرف عمرى.

بيــبرس: عنــدك حــق.. خلينــا فى الجــد.. الشــعرانى وعــدك لمــا تقتلنــى إمــا يعملــك ســلطان وإمــا يــدخلك الجنــة.. الســلطنه راحــت منــك لأنــك مــا قــدرتش تقتلنــى فاضل الجنه.. انت شفت الجنه؟

عطون: أيوه شفتها بعينى مثل ما انا شايفكم الساعه.

بيبرس: احكى لنا عنها شويه يا عطون.

عطون: هذا سر لا أبوح به ولو قطعتونى قطعه قطعه.

بعــد ذلــك توجــه بيــبرس بالحــديث إلى الــوزير زيــن الــدين قــائلا: أنــا فى حــيرة مــن أمر هؤلاء الناس، كنت أعرف إنهم أهل نجدة.

الــوزير: كــانو أخيــار لمــا كــانوا طائفــه صــغيره، كــانوا بيجتهــدوا لتحســين ســمعتهم حتــى يقــال أنهــم فعــلا أحفــاد الإمــام جعفــر الصــادق، وكــان مــن زعمائهــم ســليمان الجاسوس وأسد الدين العابوس.

بيــبرس: الــرجلين دول كنــت أحــبهم يــا زيــن الــدين، ومــاكنتش أتوقــع إن أخلافهــم وزراريهم يتآمرون على قتلى.

الــوزير: لأن عــددهم كــتر وقلاعهــم فى أصــقاع متعــددة بعيــده وأحســوا بــأنهم جديرون بامتلاك البلاد الإسلاميه كلها أو بعضها.

بيبرس: زى القرامطه.

الوزير: تمام.. وطريقتهم هى طريقة القرامطه.. الاغتيال والتخريب.

بيــبرس: ظروفنــا الــلى إحنــا عايشــين فيهــا تجعــل النــاس دول أخطــر عــلى المســلمين مــن القرامطــه.. أيــام القرامطــه مــاكنش فيــه تتــار ولا صــليبيين يضربــوا المســلمين من الشرق والغرب.

تبــين للســلطان بيــبرس أن جماعــة الإســماعيلية أو الباطنيــة أكــثر مــما كــان يقــدر، وآمــالهم أبعــد مماكــان يظــن وأنظمــتهم السرــية أخطــر مــما كــان يتصــور، وكانــت شرطتــه تعتقــل المشــتبه بــأمرهم أفــرادًا أو جماعــات وتضــعهم معــا فى قلعــة دمشق

ومعهـــم مـــن ينقـــل أخبـــارهم إليـــه، التـــى أوضـــحت أن الشـــباب الـــذين انخـــدعوا بأكاذيـــب نجـــم الـــدين الشـــعرانى مـــن الأميـــين الجهـــلاء المحـــرومين مـــن المعرفـــة والثقافـــة ؛ولهـــذا أمـــر بيـــبرس أن يعـــاملوا بـــالرفق، ومـــع ذلـــك كـــان هـــؤلاء الشـــباب المخدوعون والمغيبون يعتبرون أن عطون نجمهم اللامع ويغنون ويرددون:

عطـون ياللـى مـا ولـد إلا أبـوك مثـلك أسـد
يخشـاك سلطـان البـلد ويحبسك أيـا عطـون
ويقيـدك أيا عطـون
عطون يا ساكن الحبس ياما اتحبس عنتر عبس
يا خـير من بيـده لبس قيـد الحـديد أيا عطـون
زرد الحديد أيا عطون
كـل الصبـايا يا سبـع تستنظـرك حُـول النبـع
ما فى خلافك فى الربع يمـلا لهـن يا عطـون
يحـلا لهـن يا عطـون

وكـــان أهـــل المحبوســـين يجتمعـــون كـــل يـــوم عـــلى بـــاب الســـجن هـــم وبقيـــة الجماهـــير ليعرفـــوا أخبـــار هـــؤلاء الـــداعين إلى المـــذهب الجديـــد، وكـــان ضـــمن هؤلاء أم عطون التى كانت تولول وتقول:

يـا دلى م اللـى دهـــانـى	مـن جنــة الشعــرانى
يـا أمــى لا تلـــــومينى	شبــاب وشفت بعينـى
أجســـام الحـور العينـى	تحت التـوب الحُـرانى
يـا أمـــى ابكـــى عـليـــا	م الصــبحيــه لعشيــه
جبــت بـــلايــا بعـنـيــه	وانا غيرى كان الجـانى
يا دلى من نجـم الــديـــن	واسمه والله عدو الدين
من خمـر الهنـد سقـانـى	وأهلى ودينــى نسّـانى
على قبرى طولّى وقولى	يا ويل ابنى ويا ويلـى
راح محـروم مـن الـدنيـا	ولأحــزانى خـــلانـــى



جَوان

الجاسوسية صناعة وفن من الفنون العسكرية الرفيعة، إذا كان الجاسوس يخدم أمته ويرمى نفسه فى المهالك لكى يتعرف على أخبار العدو، ويفسد تدبيره ويحبط أعماله. والجاسوسية فى الوقت ذاته جريمة أهون حكم عليها بالإعدام إذا كان الجاسوس يعمل ضد أمته وينقل للعدو أخبارها ويطلعه على أسرارها. ولكن فى الناس من يحترف الجاسوسيةليشبع من الملذات ويعيش عيشة الملوك والأباطرة كصاحبنا " جوان " إبليس هذه الملحمة وشيطانها الكبير، الذى استغل كراهية الإفرنج للعرب فتطوع لخدمة هؤلاء الإفرنج فصدقوه وكانوا يرسلون أكياس الذهب مع الرسل، فيذبح الرسل ويقول لمن أرسلوهم أن اللصوص ذبحوهم فى الطريق وأخذوا الأموال، فيرسلون له أموالا غيرها وهكذا يعيش على لويس التاسع الدرويش وأمثاله، وفى هذا يقول الشاعر:

يا باعت الجواسيس تقضى مصالحك	ابعت على الجواسيس كمان جواسيس
السعى بالوشايات مهنه خسيسه	يقبل عليها كل ندل خسيس
واللى يجيبلك سر غيرك يروح له	بسر من عندك عزيز ونفيس
واللى بتعطيه كيس أجرة سعايته	يعطيه عدوك أجر خمسين كيس
شوفوا جوان اللى صبح من زباينه	ملوك أروبا من فيليب ولويس
يبوس أيادى الحسان الأوانس	وينقى منهم كل شكل أنيس
ومسكنك يا جوان وكل معيشتك	بلاش وبايت كل ليله عريس
يشولك السمان على خمر قبرص	ومعاك على الألحان جوارى نميس
ولا يهف عليك تزور الكنايس	ولا تهزك رنة النواقيس

وقد جاء فى السيرة أن جوان ينتسب إلى "عقبة بن مثاب أو مصعب" اللعين محبوب الشيطان فى الأزمان الغابرة، وعقبة هذا ينتمى إلى مجموعة من العرب تعرف بـ " بنى سليم" وكانوا مسلمين، ولكن عقبة أصبح مشركا، وظهر من ذريته من هو ألعن منه.

وقد تفنن رواة السيرة فى رسم صورة جوان، فجعلوه صورة مجسمة لإبليس، فعند خروجه إلى الدنيا لمع البرق وهطل السيل، وخسف القمر، وأظلمت الدنيا. وجاءوا له بالمراضع فأنكرها جميعا، فأتوا له بالغزال والبقر فنفر منها، ثم حملوه إلى دير منعزل فيه كلبة ناحلة الشعر، فأقبل عليها ومازال يرضع من لبنها، حتى دب على الأرض ومشى، كما صوره الرواة أيضا على أنه كان غاية فى القبح، أبطش المنخر، رفيع العنق،كبير الرأس،شنيع المنظر، وكان خلقه كصورته كثير النفاق ولا يكف عن الأذى، ولا يجلس مع قوم إلا ويفسدهم ويلقى بينهم الفتن. وبالجملة فانه ولد بفعل شر ورضع من كلبة، فجاءت أفعاله نجسة، وقد درس النصرانية، وسائر العلوم الخفية فى أحد الأديرة، وكان من عادة سكان الدير أن ينزلوا إلى البحر كل عام، فيقطعوا الطريق على الحجيج ويأسروهم، وكان من بين الأسرى رجل صالح من العراق اسمه "صلاح الدين العراقى" وهو صاحب فضل وإشراق، يتفنن فى علوم كثيرة فى الحديث والتفسير، وله مشاركات فى الأدب والمنطق والعروض وسائر العلوم الدينية والدنيوية، وقد تعلم منه جوان سائر العلوم من باب محاربته للمسلمين، ثم قتله جزاء الخير بالشر ثم لبس لباسه، ونطق بلسانه وحكم بمنطقه، وأخذ يحتال على المسلمين بما تعلمه من هذا الشيخ.

جوان : اسم فارسى معناه الشاب، الفتى.

وكان جوان يعيش فى حـارة الروم بالقاهرة مع مسـاعده ويدعـى "الــبرتقش" الــذى لم يكــن شريــرا بــنفس درجــة جــوان، ولكنــه كــان يســاعده فى كــل شر يأتيـــه. وكـــان جـــوان يتخفـــى تحـــت أســـماء مختلفـــة مثـــل الشـــيخ حســـن العراقـــى أو الخواجـــة ســـمعان أو يـــتقمص شخصـــية امـــرأة وذلـــك حســـب ظـــروف الموقــف الــذى يمــر بــه. وتحــكى الســيرة أن بيــبرس كــان يعلــم بحقيقــة أمــره ولكنــه كـــان يتركـــه لـــكى يتعـــرف عـــن طريـــق مراقبتـــه عـــلى نوايـــا الإفـــرنج تجـــاه بـــلاد المســلمين، وأفضــل وصــف لهــذا الشــيطان مــا يقولــه هــو عــن نفســه حــين يخلــو مــع كأسه:

أنا طـول حياتى من شبابى لمكـبرى — أعيش والشيطـان معـايـا حليـف

إذا اشتهت نفسى بنات الأباطـره — أسعفت منـهم كل شكل ظريف

بنـات فى عمر الـورد باست إيديـا — وإيديا أخشن من قحـوف الليـف

وإذا اشتهيت يا جوان بنات المشارق — دخلت فى العيـله فقى وعـريـف

فى كـل شـرع ودين عنـدى دفاتـر — صنفت فيها أجمـل التصـاريـف

أنا أكـون فى يـوم أجمـل مسامـر — وأكون فى أيـام وحش ومخيـف

وأعشـق البلـدان وفى كـل مرحـله — أنا أحسن اللى يحسنوا التصريـف

أقنى الملاح الغيد من الترك والعجـم — أشكال عديده من سمـين ونحـيف

قحوف : جمع قحف الليف : قشر النخيل الذى يجاور السعف

كما كان لجوان منطق عبثى فى الحياة توضحه الكلمات الآتية:

الأنـس كلـه والحـظ كلـه   يكون فى زمن المغفلـين

وناس تقول لك الـدنيـا سا   يره وإحنا فيها متسيرين

يحكمنـا كـردى وتركمـانى   وإحنا لحكمه مستمثلين

ولمـا تحلـف انـك خـليفـه   يبـاتـوا جمعـا مصـدقين

وبجبّه بيضا وعمّه خضـ   را وراك يصلوا مسبحين

أربع جوارى تعقد زواجهم   وعشر سرارى مسرحين

وأمـا بنت عشـره وتـلاتــه   غرض الملوك المتوجين

وســوف نســتعرض فــيما يــلى بعــض مشــاهد الصرــاع بــين جــوان وبيــبرس، وأيضــا مغـــامرات جـــوان اللعـــين التـــى لا تنتهـــى جريـــا وراء ملذاتـــه ومتعتـــه وشـــغفه باقتنـــاء الصـــبايا الحســـان، حيـــث كانـــت تنتهـــى كـــل مغـــامرة بمقطوعـــة شـــعرية حســـب ظـــروف المشـــهد، ولأن جـــوان كـــان يحمـــل حقـــدًا دفينًـــا لبيـــبرس فانـــه كـــان يصحو وينام ولسان حاله يقول:

عايش سعيد يا بيبرس فى زمان مظـ   لم تقـل فيه المعـرفـه والنـور

لو كـانت الأقـــدار بالعـدل تعطـى   لكـان نصيبك طرشجى بماجـور

كيـف مـؤثـرين المـلك ركـزت جتتـك   مـن الأنـايـا وللا مــن عصفـور

الـدنيـا يا محمـود لـو كـان مثـالك   فيها يكـون سلطـان تـزول وتغـور

ملـوك بنـى أيـوب وهـمّ أعـالـى كـا   نوا على عروشهم شموس وبدور

بحر قزوين

تحكى السيرة الظاهرية أن الأمير ركن الدين بيبرس قبل توليه السلطنة كان فى زيارة لبركة خان زعيم القبيلة الذهبية التترية المسلمة، والتى تقطن المنطقة الواقعة بين نهر الفولجا وبحر قزوين، وذلك للترتيب للحرب ضد هولاكو لإضعافه وشغله عن مهاجمة البلاد الإسلامية، والحقيقة أن بركة خان لم يتقاعس أبدا عن ذلك؛ نصرة لدين الله، وقاتل هولاكو وهزمه. وفى أثناء الزيارة هذه وجد بيبرس أن جوان قد سبقه إلى هناك ليتجسس عليه، وفى سبيل ذلك أنفق مالا كثيرا وعاث فى هذه المنطقة فسادا، فطارده بيبرس حتى ترك تلك البلاد، ثم أنشأ مخاطبا بحر قزوين يقول.. صلوا على طه الرسول:

بعد حمد الله أصلى على النبى	محمد المبعوث إلى العالمين
محمد الآمر بكل فضيله	واللى نهى عن كل فعل مشين
والمسلم اللى لا يحارب الرزايل	مكتوب عند الله غير أمين
يا بحر قزوين وانت طاهر مطهر	من خير بحار الأرض يا قزوين
سفاين القرصان ما شقت عبابك	ولا اعتلى موجك غزاة ملاعين
يصعب علىّ لما ييجى يدنسك	مجرم لئيم من أسفل السافلين
نشر على شطيك رايات الخناقه	منها استجار الحوت والدرفين
وأنت اللى من حُولك رأينا أئمه	فى الشرع كانوا كلهم أساطين
واليوم يا قزوين أودع شطوطك	والناس على أعراضهم آمنين



*****

خيبة الأمل

اهـتم بيـبرس بإنشـاء أسـطول بحـرى للـدفاع عـن شـواطئ الـبلاد؛ ولهـذا الغـرض أمـر بتصـنيع عشرـ سـفن إضـافية، وبعـد إتمامهـا أقـيم سرادق للاحتفـال بتدشـين هـذه السـفن بمنيـل الروضـة، وكـان اللعـين جـوان حـاضرًا فى هـذا الاحتفـال، ولكنـه كـان متخفيـا فى شخصـية سـيدة تـدعى الحاجـة أم عزيـزة المغربيـة بعـد أن وضـع كميـة مـن السـم القاتـل- فى لمـح البصرـ-بيديـه ومئـزره الـذى يلبسـه، وبعـد انتهـاء الاحتفـال تقـدمت الحاجـة عزيـزة المغربيـة المزعومـة لتسـلم عـلى السـلطان بيـبرس، وعنـدما مـد بيـبرس يـده ليسـلم عليهـا سـمع صرخـة مرعبـة وصـوت يقـول " حاسـب " ثـم ظهـر الشـيخ شـيحه جـمال الـدين بينـه وبينهـا وحـال دون إتمـام السـلام باليـد؛ وبهـذا نجـا بيـبرس بعنايـة اللـه ورعايتـه.وانطلقت السـفن العشرـ الجديدة فى نهر النيل ومنه إلى البحر الأبيض المتوسط فى رحلة استكشافية.

بعـد ذلـك عـاد جـوان حزينـا إلى منزلـه بحـارة الـروم، وأول شيء فعلـه هـو أنـه غسـل يديـه بالخـل والليمـون وحـرق المئـزر الـذى كـان يرتديـه، ثـم جلـس ومـلأ كأسه وصعدت أنفاسه، وهاهو ينشد ويتكلم بل يتأوه ويتألم :

بيبرس يـا صعلـوك	يا أرخـص مملـــوك
ياللى ما تعرف أبوك	أنا هاوريك الـويـــــل
أنا عنــدى أهـــوال	مـا تحمـلهـا جبــــال
هتبــان فى الأفعـــال	إن ما نفعشى القـــول
منهــا يـا مشــــئوم	شيء من صنع الروم
فى التـوب المسموم	والمنسوج عالنـــــول
هتشــوف يا غلبــان	مـــلاعيبـــــى ألـــــوان
يا عـامــل سلطـــان	وعـامـل لك أسطـول
يا أزعــر زعـــــرور	عـامل كــام شخطـور
ما يجوش حق بخور	لكنيســة ســان بــول
أنــا ويـاك اليــــــوم	وكمــان بعـد اليــوم
وأمـا يحـول الحـــول	بعـده يجيـلك حـــول

شخطور : قارب



وكــان جــوان قــد أعــد كميــة مــن " الغُريبــة " المعجونــة بالســمن والســكر مضــافًا إليهــا سُــم قاتــل، وأعطاهــا لإحــدى قريبــات صــبى بحــار يعمــل عــلى هــذه الســفن الجديــدة وذلــك كهديــة يأكــل منهــا هــذا الصــبى مــع رفاقــه البحــارة، فيتســممون ويموتــون وتتــوه الســفن فى البحــر ويفقــدها بيــبرس. ولكــن اللــه خيــب ترتيــب جــوان فعنــدما أخــرج الصــبى الصرــة التــى بهــا الغريبــة ليأكــل منهــا مــع الرفــاق فى وقــت الاســتراحة بأحــد المــوانى، هيــأ اللــه لهــم منقــذا، حيــث ظهــر ولى اللــه الشــيخ شــيحة جــمال الــدين وأخــذ الصرــة وألقــى بهــا فى البحــر، وبــذلك نجــا البحــارة مــن المــوت وعادوابالســفن بعــد الرحلــة المقــررة ســالمين. عنــدما علــم جــوان بــذلك جــن جنونه وأخذ يردد:

بيبرس يا فرحــان بــدستة فــلايــك	إيش يجعلك تقرب من الأساطيــل
عنــدك مراكب رز كــانت كفــايـــه	وهى ســـارحه فى ميـاه النيــل
عملت لك يا بيبرس عشـرة قـــوارب	فى بحـــرنا يبلعهـــم الــدرفيــل
صنعه فى بحر الروم ما تخص غـيرنا	وإزاى هتوصـل وانت فيها دخيل
جاعـــل جنودك من ولاد الحـــوارى	اللاعبـــين بــالآل والشخــاليـــل
روح اســأل الأمواج إن كنت هـــايب	تخــبرك إنك حقـــير وذليـــــل
تعيش فى وكر الضب فى البر مختفى	يدوس عليك الضبع قبـل الفيـــل
أسطول لويس يا بيبرس فى قلة العدد	عشر تلاف غليون بصارى طويل
تقف ما بين البحـر والسُحب والسمـا	والجــن ما تلقى إليها سبيــــل
وفين تروح ياللى قصـاعك من الخشب	والقصعه إيش تحمل وإيش تشيل

جوان يندب حظه

جاءت الأخبار إلى السلطان بيبرس بأن التتر بعد أن احتلوا مدينة حلب قد أغاروا على مدينة حماه فاحتلوها ويستعدون للهجوم على مدينة حمص؛ فخرج بيبرس بجيوشه لملاقاة التتر وصد هجومهم. فى هذا الوقت ادعى جوان-المتخفى تحت اسم الحاجة أم عزيزة المغربية - بأنه سوف يغيب عن مصر شهرين أو ثلاثة لزيارة أولياء الله الصالحين بالعراق ثم الذهاب بعد ذلك إلى مكة المكرمة لكى يعتمر. وفى الواقع كان اللعين جوان ذاهبًا إلى أنطاكية لحضور عرس "سموت" ابن هولاكو على بنت الملك فيليب الإفرنجى. وبعدها يتجه إلى ميدان المعركة بين بيبرس والتتر ليقاتل فى صفوف التتر ضد بيبرس، وانطلق جوان فى البر الفسيح يسابق الريح وحلا له أن يقول وكل ما يقوله غير معقول:

اجرى وسابق الريح ألا يا جوادى
محال بعد اليوم تكون مسبوق
وانا فى حارة الروم من فوق فراشى
سمعت يا هلاوون صوت البوق
من جيشك اللى صار بين السما والأرض
زى الطوفان يردى الجيوش ويسوق
على شط قزوين العواصم جعلتها
تبكى ماضيها فى غروب وشروق
وأذربيجان المنيعه بيبانها
جعلتها حفنة رماد مسحوق
وأهل الجزيره عالفرات ودجله
بيشربوا منها عِكر ما يروق
جايلك آيا هلاوون بيبرس اللى أصله
مملوك يا هربان يا معتوق
معاه من الجرابيع هما وهوه
عددهم يتحط فى صندوق
أنا جايلك يا بيبرس أحضر جنازتك
مشلول ولاّ فى قزان مسلوق

جالك أيا هـلاوون بيبرس اللى أصـلـه

مملـوك يـا هربـان يـا معتـوق

معـاه مـن الجـرابيع همّ وهـوّ

عـددهـم يتحـط فى صنـدوق

أنا جـايلك يا بيـبرس أحضـر جنـازتك

مشلـول وللا فـى قزان مسـلوق

وأسكر فى عُرس الخـان والـبَب ساكرا

اللى يـدوقهـا ما يـريـد يفـوق

ويـومها يـامـا نفسـى تبلـغ منـاهـا

وقلبى يـبرد من زمـان محـروق

وصـل جـوان إلى أنطاكيـة، وجلـس فى السرادق المنصـوب للاحتفـال بعُـرس سـموت ابـن هولاكـو وبنـت الملـك فيليـب الإفرنجـى، وأخـذ يتمايـل مـع أنغـام الأغنية التى تقول:

تـترى سموت عريس مبسـوط
عروسه بنت فيليب
والمهـر معـاه حلـب وحمـاه
وحمـص قـريب
تـترى فرحـان عريس سلطـان
وعمه خان هلاوون
أعظمها خـان ولا نمـرود
ولا فـرعـون
لسـه قـدام بـلاد الشـام
ولسه عكا وصور
وكمان بيروت ومصـر كمـان
دا تـار منصـور

بعـد ذلـك ذهـب جـوان إلى ميـدان القتـال بـين جيـوش بيـبرس مـن جانـب والتـتر الذين يحاولون الاستيلاء على مدينة حمص من جانب آخر،

ولكــن لســوء حظــه هُــزم التــتر وأخــذ هــو أســيراً ضــمن أسرى التــتر الــذين قاتــل فى صــفوفهم، ورغــم أنــه كــان متخفيــا، إلا أن بيــبرس تعــرف عليــه عنــد استعراضــه لــلأسرى. وأراد بيــبرس أن يزيــد مــن حسرــته، فجعلــه يحضرــ عمليــة توزيــع الغنــائم عــلى الجنــود الــذين اشــتركوا فى القتــال، ومــن هــذه الغنــائم الفتيــات التتاريــات الحســناوات، فتــأزم جــوان وزادت حسرــته، وهــو مــن هــو فى عــالم الفجور ومعروف عنه شغفه بالفتيات الحسناوات وترنم بهذا الكلام :

لو تسمع الأشعار فى الحسن والغزل ... اسمعها من محروم أو منحـور

يشـاهــد الجميـلات رايحــه لغـيره ... وهـو صـدره كالجحيـم يفــور

مُعـدم فــلا بالمــال يبلـغ مــــراده ... ولا مُحـارب له نصيب موفـور

آه يا بنات قزوين يا للى وجـوهكــم ... صيفـًا شتــاءً ورد فى بنــــور

ياللى لكم أجســـام ماتلـين وتنتنــى ... إلا لفـارس فى شبابه جســور

ياللى عيونكم فوق خدودكم رموشها ... مكسوره والناظر لها مكســور

ياللى ضــفايـركم على الضهر فتنه ... محلا شمايلكم وجوه وضهـور

رايحين لخـل جديد وفى يـوم وليله ... نسيتــم المأســـور والمغـدور

نعيــم وكـاسـه يــدور هنيئـًا مريئــًا ... للى على أعـداه يبات منصـور



خناقة الجواسيس

كــما ســبق أن ذكرنــا، بعــد أن تــم القــبض عــلى ســنجر الحلبــى تــم إرســاله مكــبلا بالحديــد إلى القــاهرة، وتــم عمــل زفــة تجريســة لــه بشــوارعها، وكــان جــوان جالســا عنــد تــاجر مــن تجــار بــين الســورين يــدعى أبــو لطيفــة، وهــو وإن كــان مــن أكــبر التجــار الــذين يســتوردون الأجبــان البلقانيــة والســجق القــبرصى والبســطرمة الروميــة، فإنــه أيضــا مــن كبــار رجــال المخــابرات عنــد ملــوك الإفــرنج، وعــن طريقــه تصــل المرتبــات إلى صــغار الجواســيس والعمــلاء. وكــان جــوان يحســب لــه ألــف حســاب ويتظــاهر أمامــه بالوقــار والصــلاح والتفــانى فى الخدمــة بكــل أمانــة وإخلاص. وبعد أن مر موكب زفة سنجر دار بينهما الحوار التالى.

جوان: بقى دول ناس.. بقى دا سلطان اللى ينتقم من أعدائه بالشكل دا؟

أبــو لطيفــة: هــادى حاجــات تخصــهم يــا شــيخ جــوان خلــيهم يجرســوا بعض..ياكلوا بعض.

جــوان: لكــن يــا ابولطيفــه الجــدع دا جــدع محــترم عشــان كــدا ولاه الســلطان قطــز على دمشق.

أبــو لطيفــة: هــذا لــيس علامــة عــلى الجــدارة والكفــاءة، الســلطان قطــز مــا كــان عنــده ملكــة التقــدير ووضــع الأمــور فى نصــابها، كــان الــلى يخطــر عــلى ذهنــه يفعله مثل ما يقول الشاعر:

فإنها خطرات من وساوسه يعطى ويمنع لا بخلا ولا كرما

جــوان: أنــت نظــرك أصــح مــن نظــرى.. أنــا قلــت إن ســنجر دا ولــد مقــدام يهجــم على الأخطار.. يعنى نعتمد عليه.

أبو لطيفة: شفته أنا وباعرفه مليح، طوله ستة أقدام ووجهه مشرب

بالــدم وشــواربه ملتويــه عــلى خديــه، وهــذا هــوه الــلى جعــل الســلطان قطــز يعينــه على دمشق، أما فى العلم والتدبير ما يحصل ظفر فى قدم بيبرس.

جــوان: بيــبرس دا عمــره قصــير.. شــوف كــام ملــك خــارجين عليــه، بكــره هيلاقــى نفسه لوحده.

أبــو لطيفــة: الملــوك الخــارجين عــلى بيــبرس كلهــم مــن نــوع ســنجر.. شــباب بــدهم يــاكلوا ويشرــبوا ويتمتعــوا، أمــا الملــوك المعتــبرين الــلى احنــا نعتمــد علــيهم والــلى ممكــن نســتفيد مــنهم هــم: الملــك المغيــث ملــك الكــرك والملــك شــيركوه ملــك حــماه، هــؤلاء أصــحاب حــق فى العــروش الإســلامية لأنهــم مــن ســلالة صــلاح الدين الأيوبى.

جوان: تفتكر دول هيكونوا فى صفنا فى يوم من الأيام؟

أبولطيفــه: أبــدًا مــا فكــرت فى هــذا، لكــن فايــدتنا مــنهم إنهــم يضرــبوا بيــبرس؛ لأنهــم لا يطيقــون المماليــك يحلــون مكــانهم فى حكــم الــبلاد الإســلامية.. شــو قطــز شو بيبرس شو قلاوون شو سنجر.

جــوان: نظرتــك صــايبه يــا منشــير وسياســتك عليــا، أمــا أنــا بقــى فراجــل باشــتغل على قدى، لو سمحت أعطينى مرتبى أى الـ 500 دينار.

أبو لطيفة: هل أحضرت معك البطاقه ؟

جوان: آه.. نسيتها.

أبــو لطيفــه: المــره الــلى فاتــت تهاونــت معــاك لكــن هــالمره لــن أتهــاون معــك، عنــدى تعليمات من قبرص ألا أعطى فلوس إلا لمن يحمل بطاقه.

جــوان : كــدا؟ أنــا يــا ابولطيفــه هتجينــى مرتبــاتى مــن قــبرص وبــاريس وجنــوه ومرسيليا وفوقهم بوسه كمان.. يغوروا الـ500 دينار اللى هييجوا من وشك.

عــاد جــوان إلى منزلــه بحــارة الــروم فلاحــظ مســاعده الــبرتقش الغضــب عــلى وجهــه؛ فسـأله عــن سـبب الغضـب فحـكى لـه مـا حـدث مـن أبـو لطيفـة ثـم أضـاف إنــه علــم إن فيــه نظــام جديــد اتعمــل فى بــاريس، عملــوه جماعــه نصــابين بيلعبــوا فيــه عــلى الراجــل الغلبــان الــلى اســمه لــويس التاســع، قــالوا نعمــل جمعيــه كبــيرة مفيهــاش أكــتر مــن تــلات أعضــاء يعرفــوا بعــض، وبالشــكل دا ينفــذوا أوامرنــا مــن غــير مــا يتكتلــوا ضــدنا وتتجمــع الفلــوس فى إيــديهم ويخــدوها لنفســهم ويقولــوا صرفناها فى الحرب المقدسه. بعد ذلك قـال جـوان مترنمًا:

علـى آخـــر الأزمـــان يـا بـولطـيفه
جــوان يقــدم للجنــاب حساب
يملك جـوان قصـور فى بـلاد أوروبا
مثـــلك ما يتعــين بهــا بـــواب
جوان فى فن الجوسسه والمخابره
ربى تلامذه ألوف كهـول وشباب
على ملوك الروم والتر ك والعرب
أدخـل بلا استئذان من الحجـاب
ولـو طلبت المــال تجينى شكـايـر
مقفـوله بالأختـــام لحـد البــاب
ملــوك أوروبـا يبعتـولى بنـــاتهم
تاخـد دروس فى الـدين والآداب
حتى عِــدايـا يشهـدوا لى بأنـــى
عالــم وعلمى محيـط بكـل كتــاب
آه من زمان يفضّل الأرض عالسما
فى الرفعـه ويخلى السحاب تـراب
واقف على بابــك وأطلب مـرتبى
وتـــــردنــى يـا أزرق الأنيـــاب
ملــوك أوروبا حملــونى الأمــانه
وتعامــل الأعـــوان والأحبــاب
وأنا اللى هاورى القوم يا بولطيفه
إنك فى سوق بين السورين نصـاب

كـان للطريقـة التـى تعامـل بهـا أبـو لطيفـة مـع جـوان تـأثيراً كبـيراً فى حالتـه المزاجيـة، وبـدا لفـترة عصـبيا وانعكـس ذلـك عـلى علاقتـه بمسـاعده أو صـبيه الـبرتقش، مـما جعـل الـبرتقش يتـذمر ويبـدى امتعاضـه وتمـرده عليـه. وفى أحـد الأيـام جـاءت الخادمـة شميسـة إلى حجـرة الـبرتقش لتوقظـه مـن النـوم ليرتـب حجرة معلمه جوان، فرفسها برجله وهو يلطم ويعدد بهذا الكلام:

مـافيش شـاعـر يغنى لـى	بغنـوه ويلـى يـا ويلـى
مـافيش نـدابـه تلطـم لـى	وتتكـلـم عـلى غـُلبى
يا ويلى يلـى طـول عمـرى	أجـرجـر فى هـلاهيلـى
ولمـا يـا جـوان تعـرق	ليلاتى فى الفـراش تغـرق
وانا اللى أنشر وانا اللى أحـ	رق ملاية الفرش يا خليلى
عـجيبـه لمـا أكـون سيـدك	وغـيرى حـد مـا يفيـدك
واجعـل روحـى فى إيـدك	تجـرجـرنى وتـرخي لـى
أنـا اللـى عشـت فى جهـلى	ونـاسى جـزء من عقلـى
واقـول للنفس على مهلـى	نصيبى بـرضـه هيجينـى



بعد أيام من هذه الواقعة، انصلح الحال بين جوان وصبيه البرتقش وعادت المياه إلى مجاريها، واتفقا على خطة جهنمية لسرقة أموال أبو لطيفة من منزله، وبالفعل تم تنفيذ الخطة ونقلت الأموال إلى منزل جوان بحارة الروم، وهنا أنشأ يقول:

إبليس ورايا — يتبع خطايا
وفى القضايا — يسمع كلامى
يا بو لطيفه — يا بو دقن ليفه
يا ربع مصرى — ويا ربع شامى
من غير ما اصلى — من غير ما اسلم
من غير ما اكدب — لك احترامى
المرسيليه — جعلوك عليا
ريس فى إيدك — تمسك لجامى
أنا دست دوسه — وانت فى حوسه
أنت وشميسه — تخفى الأسامى
فن السياسه — عأيز كياسه
عأيز مدردح — عايز حرامى

جوان وعشق الصبايا

جرت العادة أن يرسل الإفرنج كل عام مفتشا ليفتش على الجواسيس والعملاء المنتشرين بالبلاد العربية والإسلامية، ويعرف المجتهد منهم من المقصر والمخلص من الخاين. وكان أبو لطيفة - التاجر فى بين السورين - من الرؤساء الذين يعتمد عليهم المفتش ويصدق التقارير التى يكتبها، وهو الذى كتب عن جوان أنه ينفق الأموال على الراقصات، وكانت النتيجة أن الإدارات العليا فى باريس ومرسيليا حولت مرتب جوان إلى أبو لطيفة وتركت له الحرية فى دفع المرتب أو عدم دفعه بحسب ما يرى من سلوك جوان.

و كـــان المفـــتش رجـــلاً مـــن العمـــلاء الـــذين أجـــروا أنفســـهم للإفـــرنج ورضـــوا عنـــه ورضى هـــو عـــنهم، واســـمه أبـــو نصرـــ البعجـــونى، وعنـــد زيارتـــه لمصرـــ أحضرـــ معـــه ابنتـــه أنجيـــل ذات الأربعـــة عشرـــ عامـــا؛ لتتفـــرج عـــلى مصرـــ.ورتب جـــوان لاســـتقبال المفـــتش فى منزلـــه، وحـــين رأى جـــوان "أنجيـــل" بصـــحبة والـــدها ســـقط قلبـــه بـــين رجليه وكاد يغشى عليه غير أنه صبر وتماسك، فقد كانت فتاة جميلة بحق.

أمـــر جـــوان مســـاعده الـــبرتقش أن يحضّرـــ الغـــداء مـــن الخبـــز والدقـــة والفجـــل والزيتـــون ليـــبرهن للمفـــتش عـــلى أنـــه يعـــيش عيشـــة الصـــالحين، وفى أثنـــاء إعـــداد البرتقش للمائدة أخذ جوان قيثارته ليبث إليها لوعته وحرقته الجديدة:

يا قلبى كابر وقل لى صابر	عن المغازله وعن المحبه
تقدر تدارى كل اللى جارى	إلا العـواطـف ما تستخبى
أنجيل حزامها على قوامها	خلتلى جمره فى القلب هابه
أصـبر عليهـا تتهنى بيهـا	عشـق الصبـايا دا حبه حبه

حـــاول جـــوان مـــن خـــلال ســـلوكه وحديثـــه مـــع المفـــتش أن يثبـــت أنـــه يعـــيش عيشـــة الصـــالحين وأنـــه مـــن أهـــل العلـــم أيضـــا كـــما أنـــه يقـــدم خـــدمات جليلـــة للإفـــرنج، وأن مـــاذكره أبـــو لطيفـــة فى تقـــاريره عنـــه غـــير صـــحيح، ونجـــح جـــوان فـــيما أراد واقتنـــع المفـــتش بـــه وقـــال لـــه "احنـــا كنـــا ظلمينـــك وجـــاهلين قيمتـــك وعـــلى أى حـــال كـــل شيء يتصـــلح"، أكـــثر مـــن ذلـــك أن المفـــتش بعـــد الانتهـــاء مـــن عملـــه ســـافر وتـــرك ابنتـــه أنجيـــل عنـــد جـــوان كى يعلمهـــا أرقـــى العلـــوم ويربيهـــا عـــلى مبـــادئ الشرـــف والفضيلة.

وبهذا فاز جوان بأنجيل التى أعجب بجمالها وأيضا انتصر على أعدائه ومنافسيه فى مهنة الجوسسة؛ فبعد أن كان مهددا بتقرير يكتبه عنه أبو لطيفة أصبح هو المفوض العام والمشرف على الجواسيس فى المدن المصرية والذى يدفع لهم مرتباتهم وينظر فى شئونهم، وهذا جعله منتشيا ووجه كلامه إلى البرتقش قائلا:

أيا يا برتقش كلمنى	على أشياء تآلمنى
هتسمع قولى وتلومنى	وتضربنى بسكينه
أنا الا فرنج أعرفهم	جميعا داهيه تقرفهم
لهم أشياء تشرفهم	وأشياء زفت ملعونه
أنا وانت وآه يا احنا	بنخدمهم بأرواحنا
أمام أعداء بتدبحنا	إذا الأعداء ظبطونا
ولما يكسبوا العركه	ويستولوا على التركه
قوامك يفتحوا البركه	وفى الأعماق يرمونا
يا برتقشى أنا بدى	أقول لك خد ولا تدى
ولما الزوبعه تعدى	قوام نرسى على المينا

بعد ذلك قال جوان للبرتقش.. الإفرنج دول مالهمش أمان ولازم لنا باب رزق دايم، وعشان كدا هافتح حان فى سوق الخضار وتشتغل فيه أنجيل بنت المفتش البعجونى كساقيه تقدم الكؤوس لذوى الفلوس وتخرب الرؤوس.

فى الليلـــة الأولى لافتتـــاح حـــان ســـوق الخضـــار لعبـــت أنجيـــل بـــالعقول والألبـــاب وتيمـــت الكهـــول والشـــباب، وكســـب جـــوان مـــالا كثـــيرا. وفى ضـــحى اليـــوم التـــالى وقـــف جـــوان بجانـــب فـــراش أنجيـــل - التـــى نامـــت عنـــد شروق الشـــمس - وقـــد نامـــت أهـــدابها الطويلـــة الســـوداء عـــلى خـــديها المـــوردين وافـــتر ثغرهـــا اليـــاقوتى عـــن ابتســـامة خفيفـــة كابتســـامة الزهـــرة النائمـــة فى الأكـــمام، وتنـــاول القيثـــارة وأخـــذ فى هذه الأشعار والأنغام:

نامـى وقـومى يـا شبيهة الملايكه	اسمـك وجسمـك انت يـا أنجيـــل
ياللـى أعـادتينـى لعـز شبـابـى	لما على بسـاطى سحبتى الـذيـل
وانـا اللى مـال قلبى إليكى بنظـره	وسنين طـويله ماعـرفت الميـــل
ياللى بـلا خمـره سقتنى محـاسنـك	من اختلاف حُسنك كاسات كوكتيـل
مشيتى وسط الناس وانا كنت أسـ	مع من الصـــــدور آهات تهـــد الحيـل
ولما أعـرضتى بفـــارع قوامــك	سالت دموعهم فوق خدودهم سيل
من ليلـه واحـده هنـاك رجعتى بنقطه	أبـــات أكيّـلهـــا هنـــا بالكيـــل
يا مصـــر يـا ويلـك ويا ألـــف مظلوم فى حوارينا الجوان	فى كـل ليـله لمـا ييجى الليـــل
شهداء من الأعيان هتسكر وتندبح	علـى دراع بيبرس تنشـال شيـــل

اشـــتهر حـــان جـــوان الموجـــود بســـوق الخضـــار وكـــثر رواده، وأصـــبح أيضـــا بـــؤرة لـــلأشرار ومرتكبـــى الأوزار ســـواء بالليـــل أو النهـــار، وفى أحـــد الأيـــام جـــاء إليـــه تـــاجر بـــدوى مـــن طـــرابلس الغـــرب اســـمه " مظلـــوم " وكـــان قـــد جلـــب معـــه قطعـــان كبـــيرة مـــن الجـــمال والغـــنم وباعهـــا فى الإســـكندرية بـــأموال طائلـــة، وجـــاء إلى القـــاهرة التـــى يســـمع عنهـــا طـــوال حياتـــه ويريـــد رؤيتهـــا قبـــل مماتـــه. وفى الحـــان احتالـــت عليـــه عصـــابة الـــبرتقش - التـــى تعمـــل تحـــت إشراف جـــوان - فبعـــدما غلبتـــه الخمـــر ســـحبوه وخنقـــوه وسرقـــوا كـــل مـــا معـــه مـــن أمـــوال ومصـــاغ، فلـــما أفـــاق ذهـــب وســـأل عـــن قصرـ الســـلطان بيـــبرس ولمـــا اســـتدل عليـــه وقـــف الغلبـــان على باب القصر وأنشأ يقول صلى على طه الرسول:

حمـدا لـــربى والصــلاة على النبى واشكـى إليك يا بيبرس يا محمـود
إليك أنـا طـاوى الفـــلاة البعيـده صاعد وهابط بين وهـــاد ونجـود
معى مـن الأمـــوال والبـل والغنـم ما كـان يكفى قـــوم عــــاد وثمـود
طلع عليا الـديب والضبع والأســـد وبات معايـا الليـل نمـور وأســود
ما صابنى منهم ولا صـــاب ماشيتى ضرر عن الوحش الـردى معهـود
وجيت لأرض النيـل بعت المواشى بــربع ميـه مــن دهـــب معـــدود
وجيت لأهـل البيت أقـــرا الفـواتـح و أزور مقـــابـــــر ليـا فيها جـــدود
رعيتـك يا بيبرس جـــارت عليـــا كمـا تجـور عالمسلمـين يهـــود
سقونى بنت الحان وسرقوا فلوسى وفاتـونى لا مقتـــول ولا ملحـــود
وبمفردى أنا جيت أعرض شكايتى وللا بينـه عنـدى وللا لي شهـود

ولما سمعه بيبرس أمر بإدخاله إلـى مجلسه ودار بينهمـا الحـوار التالى:

بيـــبرس : يعنـــى يـــا أخــــا العـــرب أنـــت اســـم علـــى مســـمى، مظلـــوم وصـــحيح مظلوم.

البل : الابل وهادونجود : مخفضات ومرتفعات

مظلــوم: أى واللــه مظلــوم يــا بيــبرس.. عــرّونى وخنقــونى كــما لوكنــت يهــودى وقــع فى يد المسلمين.

بيبرس: فى الحقيقة أنت مسلم وقعت فى إيد يهود.

مظلـــوم: أى واللـــه يهـــود يـــا بيبرس..حلفـــت علـــيهم باللـــه ورســـول اللـــه انهـــم ياخدوا المال ويتركونى ما رحمونى وما رحمان غير الله.

بيــبرس: ســبحانه وتعالى..شــوف يــا أخــا العــرب أنــت هنــا ضــيفى وتقــيم كــما تشــاء ولــو لطــول العمــر، وانــا ملــزوم أدفــع لــك الـــ 500 دينــار الــلى راحــوا منــك، وســوف أجيب لك مصاغ تهديه لأهلك بدل اللى اتسرق منك.

مظلوم: خليهم عندك فى صندوق إلى يوم السفر.

بيبرس: لو أنا جيت عندكم فى طرابلس تقول لى إيه يا مظلوم ؟

مظــوم: الــلى نقولــه لــك عنــدما تيجــى طــرابلس نقولــه لــك توه..توه..نجمــع لــك أهل طرابلس نساء ورجال ونقول لك (باللهجة البدوية):

يـا بيبرس منـــور دارنـــا	تـبرق من تـزراك ودرنـــه
طالــع والله لخـالك خــالـد	سيـف الله عاللـى كـفــرنـا
يا بيبرس مشلــع نـــورك	على بنغازى قبل حضورك
قبل حضورك هذا الوادى	الشياطـين والجـن فـررنا
الشياطـين اللى حكمـونـا	الشياطين اللى سـرقـــونا
والشياطين اللى قهـرونا	رب العـزه اللـــه قهـرنـــا
عندنا حاكم فاسق مــارق	حـاكـم يقطـع يد الســـارق
وإذا اللص أعطاه النصف	يكون اللص إمام اعصـرنـا

اللى كفرنا : اللى كفروا فررنا : فروا

الله قهرنـا : الله قهرهم إمام اعصرنا : إمام عصرنا

صدمة جوان

أوكـل بيـبرس إلى صـديقه عـتمان ابـن الحلـوه مهمـة البحـث عـن الـذين سرقـوا مظلـوم البـدوى، فاصـطحبه إلى حـان جـوان الـذى سـكر فيـه مـن قبـل وبعـدها سرقـوه، وهنـاك تقابـل مظلـوم مـرة أخـرى مـع أنجيـل التـى أحبتـه وأحبهـا هـو بـدوره مـن أول نظـرة، حتـى أنـه أعلـن تنازلـه عـن هـدايا بيـبرس ورفـض الرجـوع إلى زوجتـه وأولاده فى طـرابلس الغـرب، فتعجـب عـتمان ابـن الحلـوه مـن سـلوك مظلـوم وقـال لابـد مـن إرجاعـك لبيـبرس مـرة أخـرى، فطلبـت أنجيـل مـن مظلـوم أن يأخذها معه إلى بيبرس. وفى مجلس السلطان دار الحوار التالى:

عتمان : أهى دى يا اشقر واحده من أهل البيت اللى كان بيزورهم.

بيبرس: ليه تخنقى الراجل دا وتخدى فلوسه؟

أنجيل : أنا؟! أنا خنقتك يا مظلوم؟

مظلـوم : حاشـاكى يـا زينـه، الـزول الـلى يـبص فى عينـك هيقـول ياريتهـا صـوابعك داسـت عـلى رقبتـى، ولـلا دخلـت فى عيـونى التنتـين، واللـه يـا بيـبرس مـا لمسـتنى وكيـف تصيبنى بالشر بعد ما حبتها وحبتنى من أول نظره.

بيبرس: من أول نظره؟

أنجيـل : واللـه العظـيم مـن أول نظـره، سـلم عليـا رديـت عليـه، رقـص رقصـت معـاه، غنى غنيت معاه، والله العظيم من أول نظره يا بيبرس.

بيـبرس: خـلاص يـا عـتمان مـادام مـش هيـه الـلى ارتكبـت الجريمـه تبقـى ترجـع مـن مطرح ما جت.

أنجيـل : لا لا لأ أنـا مـا صـدقت انى جيتلـك يـا سـلطان عـاوزه أقـول لـك عـلى حاجـات كتير، وكنت مش طايلاك كتر خيره مظلوم كتر خيره عم عتمان اللى جابنى.

بيبرس: طيب اقعدى استريحى.. وانت راخر يا مظلوم.. عايزه تقولى إيه يا شاطره؟

أنجيل : أنا مش اسمى آسيا أنا أنجيل بنت أبو نصر البعجونى.

بيبرس: آه سمعنا بيه.. المفتش.

أنجيل : أنت سلطان مدهش.. انت خساره فى الموت.

بيبرس: مين عايز يموتنى؟

أنجيـــل: أبويـــا وواحـــد اســـمه جـــوان فى حـــارة الـــروم وملـــوك أوروبـــا كلهـــم عـــاوزين يموتوك.. أنا عطشانه.

مظلوم: ما سقيتنا يا بيبرس ولا رويتنا ولا أطعمتنا.

بيـــبرس: مـــا انـــتم يـــا مظلـــوم أخـــدتونا فى هيصـــة رقـــص وغُنـــا..أنجيـــل انـــتم أصـــلكم من القدس..مش كدا؟

أنجيـــل : أبويـــا لمـــا صـــلاح الـــدين الأيـــوبى أخـــرج الإفـــرنج مـــن القـــدس، هاجرنـــا إلى فرنســـا وعشـــان أبويـــا بيعـــرف عـــربى وفرنســـاوى عملـــوه قنصـــل يشـــوف أشـــغالهم، كنـــت صـــغيره لكـــن أفهـــم يـــا ســـلطان. هنـــا بلـــدك مليانـــه جـــواسيس بيجيبـــوا أخبارك كـل سـاعه، أقول لك على أساميهم ؟

بيبرس: عارفهم..فى دمياط والمنصوره والاسكندريه.

أنجيل : يا سلاام.. إزاى عرفتهم؟

بيبرس: الله حامينا.. لكن إيه اللى جابك مصر ؟

أنجيـــل:جيـــت مـــع أبويـــا وبعـــدين جـــوان أقنعـــه انـــه هيعلمنـــى العلـــوم العاليـــه ويخلينـــى أدخـــل بيـــوت العـــائلات الإســـلاميه وأجيـــب أخبـــارهم، وأبويـــا صـــدقه، أبويـــا مســـكين قلبـــه طيـــب يصـــدق كـــل حاجـــه، جـــوان العجـــوز الـــوحش دا كـــان عـــايزنى لنفســـه، كـــل ليلـــه يـــدق لى عـــلى بـــاب حجـــرتى واعمـــل نفسىـــ نايمـــه واســـيبه يتفلـــق. تعـــرف يـــا بيـــبرس هـــو الـــلى عامـــل ســـوق الخضـــار دا عشـــان يســـكر النـــاس ويموتهم وياخد فلوسهم، عارف بيحط الفلوس فين؟

بيبرس: فى الصهريج.

أنجيـل : يـا عينــى يـا روحــى أنــت ســلطان عظـيم، أنــت ســحار يروحــوا فــين جنبــك بتــوع أوروبــا.. اســمع أنــا حبيتــك لأنــك ســلطان وحبيــت مظلــوم لأنــه فنــان، ومــش عاوزه أسيبكم أبدًا أعمل إيه بقى؟

عتمان : اسلمى وانا أجوزهولك.

انجيل : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله.

بيبرس: انتى ومظلوم بعد زواجكم ضيوفى أربعين يوم.

كانــت هــذه الليلــة مــن الليــالى القليلــة التــى فــرح فيهــا بيــبرس بهــذا التوفيــق الــذى أتاحتــه لــه العنايــة الإلهيــة، فلــما خــلى بنفســه صــلى العشــاء ثــم تجهــد بكتــاب الله، وأنشأ يقول.. صلوا على طه الرسول:

سبحـان من نــوره فى حكمه وحكمته	**ظـاهر ومتجلى لأهل البصـايـر**
سبحــان مــن ذكــراه تطمـن قلــوبنـا	**دايما وترشد للهدى كـل حـايـر**
سبحــان مـن يقبـل مـن العبـد تـوبـه	**يعفـى بها عما مضـى م الكبــايـر**
عـاجـز وانـا فى كـل سـاعـه يا خـالقى	**على رضاك عنى أشوف البشاير**
عـاجـز عـن الشكـران ويـا رب أسألك	**دوام الرضا وياه حسن المصايـر**
ما كنت أحسب يوم على الخصم والعـ	**دو بأهون الأسباب تدور الدوايـر**
بهمــة الجُـهـــال كشـفنـــا المخبــى	**وبهمة الأطفـال فنينـا الـزخـايـر**
يـا خفــى الألطــاف يـامــا تـورينـــا	**خفـى لطفك لـو كشفنـا الستـايـر**
العبــد لـــو تـــدبـير ومـــالك إراده	**يعيش بالتـدبير مزعزع وحـايـر**
والعبـد لمـا إليـك يفـــوض أمــوره	**تصـد عنـه كـل غـاشـم وجــايـر**

عنـدما علـم جـوان بمـا كـان مـن أمـر أنجيـل وزواجهـا مـن مظلـوم، فقـد صـوابه واهتـز كيانـه وذهـب إلى بيتـه وتوجـه إلى حجـرة أنجيـل وغضـب اللـه يكسـو محيـاه، وارتمـى عـلى الأرض ووضـع رأسـه عـلى الفـراش وأجهـش بالبكـاء ثـم أنشـأ يقول وما أبشع ما يقول :

أنجيل وانا اللى طول حياتى أقاسى أهـوال وانا منها بـدمعى بكيت

سرقوا اللصوص منى خزاين مليئه باللـولى والألمـاظ ولا اهتـزيت

يا حته مـن قلبى ما حبـك أبـوكى ولا قلـب أمـك زى ما حبيـت

يا للى مثـالك فى بنـات الأباطـره وللا الأكاسره فى العجم ما رأيت

ياريت نهـار ما تبعدى عن عيونى أكـون رفات تحت التراب يا ريت

أول مصيبه اليـوم هـدت كيـانى ولا كنت عمرى أقول أنا اتهديت

قاعد فى بيتى وللا قاعد فى تربتى كنتـى ريحـانتـى ونـور البيـت

ما ليش أمـل فى الحب بعـد فـراقك وانا اللى عن عهد الشباب وليت

فلـو أتـانى المـوت فى أى لحـظه أقول خلاص جانى الفرج والغيث

ألاعيب جوان

كـان لاعتنـاق الفتـاة أنجيـل للإسـلام ضربـة أصـابت صـميم قلـب جـوان، لكنـه كتمهـا وتظـاهر بعـدم الاهـتمام، ولجـأ إلى حيلـة جهنميـة ليسـترد بهـا أنجيـل وإعادتهـا لتعـيش معـه فى حـارة الـروم. فأنجيـل الآن تعـيش مـع زوجهـا مظلـوم البـدوى ضـيفين فى قصر السـلطان بيـبرس، ولكـن مـا أسـهل الـدخول إلى بيـوت الملـوك والسـلاطين مـادام فى الـبلاد كوديـات ومنجمـين ومـنجمات، وهـاهو يتصور النعيم الذى سيعود إليه بعد الغياب فأنشأ يقول :

أنجيـــل يا كـــنز الـهنـــا	**يا تحفه ما هى مـن هنـا**
مـن غــير خِضَـاب ولا صِبا	**متكحـلـه ومـتزينـــــه**
ياللــى قـــوامـك لـو خـطـر	**يفجــر المـاء م الحجــر**
فى ذمتــى مـا انتـــى بشـــر	**انتـــى مـــلاك وربنـــا**
يا روضـه سـاعه فى ظلـهـا	**تســـوى حيـــاتى كلـهـا**
غبتــى ســـنه عنـــى أنـــا	**وايه جرى لى فى السنه**
الـــدنيـــا دى أرض وسمـــا	**بـايتـه فى عينـى مظلمه**
وغـفـلـقــت واهـــى بقــت	**روحـــى عليـــا هينـــه**
ياللى ضـفـايـــرك من دهـب	**ياللى خـدودك من لـهــب**
طول ما انتى فى أرض العرب	**ما ليكى خـلاف بيتى أنـا**

ظهـــر جـــوان عـــلى الســـاحة تحـــت اســـم الحاجـــة أم عزيـــزة المغربيـــة المنجمـــة ودخـــل بيوت الامراء وسائر رجال الدولة، وكانت تخبر كل منهم عـن
أحـــــواله بالتفصـــيل وتضـــيف مـــن عنـــدها مـــا تشـــاء مـــن التهويـــل والتضـــليل، ذلـــك لأنهـــا تعـــرفهم منـــذ نشـــأتهم ولا تحتـــاج مـــن يخبرهـــا عـــنهم، وقـــد أدهشـــهتم مقـــدرتها وتبركـــوا برقياتهـــا وتمائمهـــا، وأغـــدقوا عليهـــا الهـــدايا النفيســـة والأمـــوال، فكانـــت تـــرفض الأمـــوال وتقبـــل الهـــدايا؛ فكـــبرت فى أعـــين القـــوم وانتشرـــ صـــيتها إلى قصرـــ الســـلطان بيـــبرس وإلى حـــريم بيـــبرس حيـــث تقـــيم أنجيـــل، وفى اليـــوم الموعـــود دخلـــت الحاجـــة أم عزيـــزة المغربيـــة إلى قصرـــ بيـــبرس وقـــد أحـــاط بهـــا الكبـــار والصغار من الحريم.
وعلـــم بيـــبرس بـــالأمر وسرعـــان مـــا اكتشـــف الحقيقـــة وأن الحاجـــة أم عزيـــزة المغربيـــة مـــا هـــى إلا اللعـــين جـــوان، فتظـــاهر بعـــدم معرفـــة الموضـــوع ورحـــب بهـــا وأمـــر باستضـــافتها فى جنـــاح خـــاص بالقصرـــ وأوصى بتـــوفير ســـبل الإعاشـــة المريحـــة لها وأيضا عدم السماح لها بمغادرة القصر إلا بأمره،

وهنـــا انقــبض صــدر جــوان وأظلمــت الــدنيا فى عينيــه وركبــه الوســواس الخنـــاس.. هــل بيــبرس صــدق أنــه الحاجــة أم عزيــزة المغربيــة بالفعــل ؟.. أم أنــه يســايره كالعادة ويجاريه فى ألاعيبه ليسخر منه ؟! وأخذ جوان يبرطم ويقول:

خيّوب عليك يا جوان ف الصبح والـ	مسـا ومن حيـاتـك للمـات خيّـوب
حسبت روحك راكـب النـاس كلهـا	وادى انت شـايـف إنـك المـركــوب
وقعت فى هــوه مامنهـا مفـــازه	وف شرك منصوب ما فى منه هروب
فى دار عــدوى يكـرمنى حبــايبى	كــرم يــروّعنـى وقلبــى يـــدوب
يومـاتى تحضرلى صـوانى وأنــانى	مــن فـاخــر المأكــول والمشـروب
كــأننـى مجــرم ومحكــوم بشنـقــه	وقـدمــوله قبلهـــا المــرغــوب



فى ذلــك الوقــت جــاءت الأخبــار بــأن التتــار يســتعدون لهجــوم عــلى بــلاد الشــام، واضــطر بيــبرس للخــروج بجيوشــه عــلى وجــه السرــعة للتصــدى للتتــار، وخــرج معــه مظلــوم البــدوى زوج أنجيــل، فخــلا الجــو لجــوان أو الحاجــة أم عزيــزة المغربية،

وجلست أمام إناء الماء وموقد النار وأخذت ترطن وتبرطم وتخلط العربى باللاوندى واللاتينى بالهندى، ثم أطلقت البخور من سبع علب وجعلت تتأمل الدخان الصاعد ثم نظرت إلى أنجيل وقالت: بخورك يا شابة قال انك متجوزه وجوزك طلع يغزو فى سبيل الله، ربنا ينجيه ويرجعه بالسلامه، ومادام انتى لوحدك تعالى باقى عندى تلات ليالى أشوف ليكى بختك على الهادى، وانا هاحضرلك مكان هادى يحضر فيه الخدم والجان. وافقت أنجيل وتم تحديد الميعاد المنتظر وخرجت الحاجة أم عزيزة (جوان) من القصر بمعرفة أنجيل. وهناك اكتشفت أنجيل ملعوب جوان وخطته لاستدراجها وصرخت وسألته بدهشه هوه أنت ؟ فأجابها قائلا:

أنا المربى يا فاجره	عليكى عيناى ساهره
أنا المؤيد بمعجزه	من دولة البَبْ باهره
أنا المخطى وخطوتى	من بحر روما للقاهره
أنا المبارك ورقوتى	ترد دينك يا كافره
بنت الأكابر كان ايه جرى لك	لما عشقتى البرابره
ما احسبشى زهره بريئه طاهره	تطلع لئيمه وماكره
من اهتمامى وطيت مقامى	وبقيت منجم وساحره
عايزك تتوبى وتبوسى إيدى	وتركعى وانتى شاكره

أنجيل: ادبحنى أحسن.

جوان : أنا عندى أمر من أبوكى انى أموتك بأى طريقه تعجبنى، أسمك أو أشنقك أو أحرقك أو أدفنك حيه..اختارى إنتى.

أنجيل : ابعد عنى.

جوان : أنا بعيد عنك ومش ح المسك بايدى طول ما انتى حيه

وانــا حــى، وإن كنتــى مــش عــايزه تعــاشرينى خلــيكى هنــا فى البيــت دا، هتلاقــى فيه كل لوازمك وعندك الخدم والحشم والعبيد.

أنجبل : لأ موتنى أحسن.

جــوان : مــا عنــديش مــانع أمــوت الجــمال دا بايــدى، بــس ارجعــى لــدينك أولا عشــان تمــوتى عــلى ملــة أجــدادك، وانــا بصــفتى قســيس هــا عمــل لــك الواجــب قبــل روحك ما تطلع.

أنجيل : ههه.. أنت قسيس ؟!

جوان: أنا كردينال.. أبوكى ماعرفكيش دا، وما أطلعكيش على رتبتى ؟

أنجيــل : أنــا اطلعــت عــلى رتبتــك بنفسىــ.. انــت حيــوان وكــذاب وفاســق وســكير وبتكدب على الكنيسه.

جــوان : أنــا مــع الأســف هاســد بــاب الــدار بــالطوب والمونــه، وهينــزل لــك الأكــل والميــا مــن ســقف الحجــره الــلى جنبــك.. عــلى مهلــك فكــرى ودبــرى لغايــة مــا تــرسى على بر.

مــا أسرع مــا نفــذ جــوان تهديــده وســد بــاب الــدار بجــدار ضــخم. وهنــا أنشــأت أنجيل وهى تستغيث بخير من يغيث :

يـــارب تنصــرنــى   على اللى آســرنى

انت اللــى واعــدنا   بالعــز والنصـــره

أنا كنت فى ضـلمه   وسريت مــن كلمه

إلى الهــدى والنــور   سبحانه من أسرى

اسمى انكتب بسلام   فى أمة الاســـلام

واللـــــه لا أنضــام   فى ساعة العسـره

واستجاب الله لدعاء أنجيل وهيأ لها من ساعدها على الخروج من سجن جوان، وذهبت إلى قصر السلطان بيبرس حيث كانت تقيم قبل استدراجها إلى هذا المكان، لتكون فى انتظار زوجها مظلوم البدوى الذى - كما قلنا - خرج مع بيبرس لقتال التتر، وعندما علم جوان بذلك بدأ نحيبه وارتفع نشيبه واسمعوا ما قاله شاعر الضلال:

ياجوهره كانت فى إيدى منوره	خطفها من إيدى الغراب وطار
يا للى الملوك مثلك ما حازت فريده	ترخى عليها فى القصور أستار
طولتى عمرى سنين وكانت قصيره	يا مطوله ومقصره الأعمار
كانت عيونك لما يسبى فؤادى	بنظره تسقينى كاسات النار
عجبى على الأقدار والعمر كله	أقضيه واتعجب على الأقدار
نبيله بنت نبيل ويأسر فؤادها	راعى غنم يسكن خيام وخفار
آ آن الآوان يا بيبرس تمسح جيوشك	جحافل البوهميوند يا صرصار
وعن قريب يا بيبرس بالحبل تتربط	وتبات مع الأسرى فى دوار
نادر أنا يا بيبرس بعد المحاكمه	أقطع رقبتك يومها بالمنشار
ويومها يا أنجيل ياللى كفرتى	أربط على خصرك ألذ النار

حاول جوان بعد ذلك عن طريق الإفرنج أن يستعيد أنجيل من خلال عملية تبادل للأسرى، على زعم أنها أسيرة لدى بيبرس، ولما سمعت أنجيل عن هذه المحاولة أنشأت تقول.. صلوا على طه الرسول:

خيام وخفار : بمعنى خيام وما يشبهها مما يستر.

أنا بحمـد اللـه بخطـوه مبـاركه   من الضـلاله للهــدى خطيت

دعانى صوت الحق من كل قلبـى   ومــن تمـام سعــدى أنا لبيت

شهـدت أن اللـــه لا رب غــيره   وبالــرســالـه للنبــى قـــرّيت

وفوق صراط الحق كاللمح بالبصر   مـن الظــلام للـنــور أنا مــريت

حبيت كـــلام اللـــه لما قــريتـه   يا نعمه أنـا ما قـريت وما حبيت

ولبست تــاج العـز بعــد المذلـه   وسكـنت بيت المـلك أرفـع بيت

قل للى جـايلنا يا خـدنا أســارى   من وسط أهلينا يا ريت ما جيت

سبق القضا باللى انكـتب للـبرايـا   وانـا اكـتـفيت بالله واستـغنيت



ا

لأغانى العاطفية

كُتبت هذه الأغانى ضمن السياق الدرامى لسيرة الظاهر بيبرس، وقد كتبها بيرم التونسى بنمط واحد بحيث تكون هناك مطربة وتردد خلفها مجموعة (كورس).

- الأغنية الأولى

المطربة	المجموعة
يا عينى أه	أه
يا عينى أه	أه
يا عينى آه	يا عينى أه يا عينى أه
	يا عينى آه
عودتنى	أه
على هواك	أه
وتركتنى	
تجرى دموعى والعزول شمتان	
هو الغرام	أه
ظلم وسآم	أه
يا منصفين	
وللا اللى واقع فى الهوى غلبان	
يصعب عليا	أه
عزيز عليا	أه
يذلنى	
وانا اللى أبيع روحى ولا ينهان	
	يا عينى أه يا عينى أه
	يا عينى آه

وجه الحبيب أه

لما يغيب أه

ساعة زمن

لا فى مكان أعيش ولا فى زمان

انعم بوصلك أه

واعمل بأصلك أه

يا سيدى

ولا تنسى إنك عالجمال سلطان

يا عينى أه يا عينى أه

يا عينى آه

- الأغنية الثانية

المطربة المجموعة

يا عينى أه أه

يا عينى أه أه

يا عينى آه يا عينى أه يا عينى أه

يا عينى آه

يومك عليا أه

بخمسميه أه

يا هاجرى

وفين أطولك يا أعز حبيب

وانا فى انتظارى أه

أضحك وادارى أه

يا هاجرى

وانت اللى من جوه لهيب فى لهيب

ولامتى يعنى مش هطاوعنى أه

يا مفترى أه

وتعيش بعيد عن موطنك وغريب

يا عينى أه يا عينى أه

يا عينى آه

- الأغنية الثالثة

المطربة المجموعة

يا عينى أه أه

يا عينى أه أه

يا عينى آه يا عينى أه يا عينى أه

يا عينى آه

أنا فى انتظارك أه

يا نور عنيا أه

صباح مسا

واكون سعيده لو أفوز بسلام

أوعى تطاوع أه

اللى يدلك أه

على الأسى

كسر الخواطر والسعايا حرام

اللى قالولك أه

يا ما بيقولولى أه

ويحلفوا

أنا لا أصدق للأعادى كلام

ياللى جمالك **أه**

سبب دلالك **أه**

اعطف بقى

ألا الجمال عمره سنين وايام

أحلف عليك **أه**

بحياة عنيك **أه**

لا تِهتدى

لا ينصفونى منك الحكام

يا عينى أه **أه**

يا عينى أه **أه**

يا عينى آه **يا عينى أه يا عينى أه**

يا عينى آه

* * *

- **الأغنية الرابعة**

المطربة المجموعة

يا عينى أه **أه**

يا عينى أه **أه**

يا عينى آه **يا عينى أه يا عينى أه**

يا عينى آه

أنا روحى هامت **آه**

من نظره كانت **آه**

من غير أمل

ولا كان رجايا ييجى يوم ألقاه

كان فين يا قلبى آه

المستخبى آه

اللى ظهر

خلانى أقول تانى وتانى آه

أنا حِبى قادر آه

ناوى يهاجر آه

يلعب بروحى

وادى انت يا ربى اللى عطيته مناه

يا عينى أه أه

يا عينى أه أه

يا عينى آه يا عينى أه يا عينى أه

يا عينى آه

- الأغنية الخامسة

المطربة المجموعة

يا عينى أه أه

يا عينى آه يا عينى أه يا عينى أه

يا عينى آه

يا ما نادونى أه

وحذرونى أه

من الهوى

قالوا الهوى يا عاشقين جراح

احنا بدينا أه

لما هوينا أه

بحبنا

جنه وكانت كلها أفراح

أفراح جمال   أه

أفراح دلال   أه

من ده ودا

أقداح شربنا بعدها أقداح

آه عالزمان   أه

بدّل وخان   أه

فى عهدنا

اللى جمع أبدان على أرواح

أنا باختيارى   أه

رضيت بنارى   أه

ولوعتى

ولويفوت العمر كله نواح

يا عينى أه   أه

يا عينى أه   أه

يا عينى آه   يا عينى أه يا عينى أه

يا عينى آه

- الأغنية السادسة

المطربة المجموعة

يا عينى أه   أه

يا عينى أه   أه

يا عينى آه   يا عينى أه يا عينى أه

يا عينى آه

تعالى أما اقولك أه

يا حلو كُلك أه

ع اللى جرى

من يوم غيابك أه يا ريته ما كان

ياما خوّفونى أه

لما شافونى أه

عندى أمل

و عالأمل يا ما يعيش إنسان

قالوا اللى حبك أه

وسكن فى قلبك أه

ولا تعرفه

هناك فى بُعده والبعيد خوان

سالت دموعى أه

وبين ضلوعى أه

نار تشتعل

والحب ناره ما لها سكان

ياما كنت أدارى أه

دمعى ونارى أه

ولا تنطفى

وبالدموع ما تنطفى النيران

يا عينى أه أه

يا عينى أه أه

يا عينى آه يا عينى أه يا عينى أه

يا عينى آه

- **الأغنية السابعة**

المطربة المجموعة

يا عينى أه	**أه**
يا عينى أه	**أه**
يا عينى آه	**يا عينى أه يا عينى أه**
	يا عينى آه
يا قلبى منك	**أه**
على صغر سنك	**أه**
حيرتنى	
قـُل لما تكبر ناوى تعمل إيه	
القلب واحد	**أه**
وانت اللى مالكه	**أه**
لو تفلته	
ما خفشى ليه يا جميل عليك وعليه	
ليه يا حبيبى	**أه**
تحسب ذنوبى	**أه**
واللى سلك	
منه المحاسن كله تنساه ليه؟	
قرب خلاصك	**أه**
وابعد خلاصك	**أه**
واللى معاه	
غايب وحاضر يفتديك بعنيه	

يحلف عليك أه

وبحياة عنيك أه

لا تنصفه

من غير يمين اعطف وحن إليه

يا عينى أه أه

يا عينى أه أه

يا عينى آه يا عينى أه يا عينى أه

يا عينى آه

- الأغنية الثامنة

المطربة المجموعة

يا عينى أه أه

يا عينى أه أه

يا عينى آه يا عينى أه يا عينى أه

يا عينى آه

وحدك يا قلبى أه

وكنت جنبى أه

مونسنى

والله العوازل كلهم ظُـلام

وحدك يا روحى أه

ويا عينى نوحى أه

عاللى انظلم

وفى شبابه يحمل الآلام

يا عينى أه		أه

يا عينى أه		أه

يا عينى آه		يا عينى أه يا عينى أه

يا عينى آه

* * *

- **الأغنية التاسعة**

المغنية المجموعة

يا عينى أه		أه

يا عينى أه		أه

يا عينى آه		يا عينى أه يا عينى أه

يا عينى آه

سمح زمانى		أه

والحلو جانى		أه

يا مرحبه

باللى تولى على الجمال سلطان

سلم علىّ		أه

ومال إلىّ		أه

ويحق لى

أفرح ولو إنه ملهش أمان

ساعة وصاله		أه

فى نور جماله		أه

فيها العوض

عاللى فات م الصد والحرمان

ساعة وجوده أه

وإيدى فى إيده أه

مين زينا

دا إحنا فى جنه كلها رضوان

ياما أقول له أه

وياما يقول لى أه

يا عازلى

لو كنت تسمح شيء جنان فى جنان

يا عينى أه يا عينى أه

يا عينى آه

- الأغنية العاشرة

المطربة المجموعة

يا عينى أه أه

يا عينى أه أه

يا عينى آه يا عينى أه يا عينى أه

يا عينى آه

أنا با اغنى أه

واقول واهنى أه

أحبابنا

الليله ليله من ليالى العيد

من مصر جينا أه

واحبابنا جُـونا أه

وحبنا

قرب علينا كل طرف بعيد

إيدى فى إيدك   أه

ياللى وجودك   أه

فى قربنا

يخذى الأعادى والنبى ويكيد

قول لى واقولك   أه

ياللى أميلك   أه

فى مهجتك

أنا سعيده بيك وانت سعيد

* * *

- الأغنية الحادية عشر

المطربةالمجموعة

يا عينى أه   أه

يا عينى أه   أه

يا عينى آه   يا عينى أه يا عينى أه

يا عينى آه

آن الأوان   أه

والحلو بان   أه

زى القمر

بعد الغياب ورا السحاب واهو بان

لما تعطف   أه

وآنس وشرف   أه

يا فرحتى

جماله زاد وعاد زى زمان

طوّل يا يوم أه

وياليل تطول أه

طول المدى

دا احنا كوانا البعد والهجران

ياما بكينا   أه

ورفعنا إيدينا   أه

للسما

نطلب وندعى ربنا الحنان

* * *

- **الأغنية الثانية عشر**

المطربة المجموعة

يا عينى أه   أه

يا عينى أه   أه

يا عينى آه   يا عينى أه يا عينى أه

يا عينى آه

عينى يا عينى   أه

ليه تشبوكينى   أه

مع الهوى

ماتحسبيشى كل الهوى أفراح

والله اللى جانى   أه

أول وتانى   أه

ما يتنسى

ولا قلت يوم دا شيء ماضى وراح

يا عينى أه	أه
يا عينى أه	أه
يا عينى آه	يا عينى أه يا عينى أه
	يا عينى آه

- الأغنية الثالثة عشر

المطربة المجموعة

يا عينى أه	أه
يا عينى أه	أه
يا عينى آه	يا عينى أه يا عينى أه
	يا عينى آه
يا حلو ياللى	أه
دلعك تملى	أه
يسُرنى	
وف كل فعلك يا جميل جميل	
وأما بُعدك	أه
عن أهل ودك	أه
فيه الخطر	
وإذا بدا قلبى لغيرى يميل	
يبقى حبيبك	أه
لكن يصيبك	أه
منه الأذى	
واللى يحافظ عالموده قليل	

ومين يخونك أه

ياللى عيونك أه

فيها الأمل

للى طريقه للوصال طويل

العين دى نظره أه

وانت أدرى أه

بلوعتى

وشوف مدامع عالخدود تسيل

يا عينى أه أه

يا عينى أه أه

يا عينى آه يا عينى أه يا عينى أه

يا عينى آه

- **الأغنية الرابعة عشر**

المطربة المجموعة

يا عينى أه أه

يا عينى أه أه

يا عينى آه يا عينى أه يا عينى أه

يا عينى آه

جميل يغازل أه

طالع ونازل أه

يحق له

سلطان جماله عالملاح ولاه

والحُسن دوله أه

وكل صوله أه

يخضع لها

سلطان زمانه اللى وراه رعياه

وإحنا هوينا أه

لا ملام علينا أه

ولا علىّ

واللى اللى عقله فى المحاسن تاه

وانا مش بايدى أه

أمرنى يا سيدى أه

ولا عصمتنى

اللى عشقته أمره فى إيد مولاه

ولا هوايا أه

شيء عن رضايا أه

ورغبتى

دا قدر مقدر فى كتاب الله

الفرح كله أه

والعز كله أه

فى الذل لك

ياللى ملوك الأرض تجرى وراك

آه من جفاك أه

آه من رضاك أه

من دا ودا

ومن مراري وانتظاري آه

يا عيني أه	أه
يا عيني أه	أه
يا عيني آه	يا عيني أه يا عيني أه
	يا عيني آه

تم بحمد الله

المراجع

1 - الظاهر بيبرس - محمود بيرم التونسى.

مسلسل إذاعى على حلقات من جزأين، تمت إذاعته 1960م.

2 - الظاهر بيبرس - دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور أستاذ

تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب جامعة القاهرة.الهيئة

العامة للكتاب.

3 - حياة الملك الظاهر بيبرس - محمود شلبى

دار الجيل - بيروت.

4- الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر

القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر

تحقيق عبد العزيز الخويطر - الرياض

5- البنية الأسطورية فى سيرة الظاهر بيبرس

دكتور إبراهيم عبد العليم حنفى - الهيئة العامة للكتاب.

كتب للمؤلف

صادرة عن جزيرة الورد

1 - الشيخ إمام ونجم.. عشاق بهيه.

2 - حكاية الشيخ إمام.

3 - أشعار ناصرية (بالاشتراك مع د. محمد طه)

4- يتم حاليا كتابة وإعداد النص الورقى للمسلسل الإذاعى "الظاهر بيبرس" تأليف محمود بيرم التونسى.

يحتوى هذا الكتاب على مجموعة من الأشعار والأزجال، كتبها بيرم التونسى ضمن السياق الدرامى لسيرة الظاهر بيبرس التى قدمت بالإذاعة على حلقات يومية عام 1960.



ويتضمن الجزء الأول من الكتاب مشاهد من التاريخ الموثق للظاهر بيبرس، أما الجزء الثانى فهو عبارة عن مشاهد مختارة من السيرة الشعبية. وقد استخدمت هذه المشاهد كلوحات جدارية نقشت عليها الأشعار والأزجال.